هذه الدراسة:

تنهج الدراسات الأدبية الحديثة نهجًا علميًا يساير ذلك التطور الهائل والملحوظ الذى لحق بأسلوب تناول الشعر والشعراء فى عصور الأدب العربى القديمة، ومن المؤكد أن البحث فى هذا الموروث الأدبى العظيم الذى يعد من أبرز دعائم تراثنا الثقافى العربى لابد وأن يتوسل بأدوات البحث الحديث التى تعتمد على تطبيق النظريات النقدية والأسلوبية واللغوية، وكذلك المناهج النفسية والاجتماعية فى التعامل مع ذلك التراث الحىّ، الذى يحدّد ملامحَ وهويَّة الشخصية الثقافية والفكرية للأمة العربية.

ومن المعلوم أن النص الأدبى يتضح جماله، ويُفصح عن مكنونه إذا لم يبخل الدارس عليه بعلمه بفروع الثقافة اللغوية والنقدية المتعددة، حيث إنَّ الدرس الأدبى فرصةٌ للتعبير عن كل ألوان الثقافات، حين يقوم على فهم اللغة والبلاغة والنقد والأسلوبية والبنائية والرمزية، وكذا يقوم على فهم المناهج النفسية والاجتماعية والتاريخية وغيرها، وكلما كان وعى دارس الأدب عميقًا بهذه الفنون الثقافية والمناهج النفسية والاجتماعية كلما كانت رؤيته للنص الأدبى أكثر جلاءً، وفهمه للإبداع أشد وضوحًا، فلم يعد هناك مجال لدارس أدب يعتمد على حياة الشاعر وفنون شعره، بل أضحى الاحترام قائمًا لذلك الدارس الذى يبحث عن الجديد وسط ركام التراث، والذى يتوسل بكل ما أنعم الله به عليه من ألوان الثقافات العربية اللغوية والنقدية والنفسية فى محاولة لفهم بعض ما خلّفه مبدعو العرب من شعراء وكتَّاب.

وحين لا يملك دارس الأدب زمام الثقافة العربية فمن الأجمل أن ينصرف عن دراسة الأدب وعن التعامل مع التراث، فكيف يفسر نصًّا وهو غير قادر على فهم أصول النحو وقواعد العربية والمغزى من التقديم والتأخير، وفلسفة الإجمال أو التفصيل، وأغراض الأساليب البلاغية وأنواعها، وكيف يفهم نصًّا وهو عاجز عن التعرف على مدارس النقد العربى والأوروبى، فقد يقتصر دارس اللغة على نظرياته، ودارس النحو على مدارسه وقواعده، ودارس الصرف وكذا العروض والقافية؛ أما دارس الأدب فهو جميعهم لا يغيب عنهم فردٌ وإلا انهدم ركن من أهم أركان التعامل مع النص الأدبى وعليه فلا داعى للتعجل فى الكتابة والتأليف قبل أن يقضى دارس الأدب شطرًا وفيرًا من عمره الثقافى فى التزوّد بفنون الثقافة العربية الغنية والمتنوعة.

والبحث منهج، والمنهج طريق واضح ومحدد، والطريق سلوك يسلكه الكاتب حين يتصدى لدراسة ظاهرة تلفت البصر، أو دراسة شعر شاعر يستحق أن يدرس، والجدّة والجدّيَّة أمران ضروريان فى البحث الأدبى العلمى، جديد فى فكرته، وجديد فى تناوله، وجديد فيما قد يتوصل الباحث إليه فى خاتمة مطافه، والجدية والالتزام والمثابرة والعناء والصدق واحترام

الذات وتجنب الادعاء والكبر، ومخاصمة الرياء والتلفيق ومحاولة الوصول إلى تفسير الغوامض واستحضار الغائب أمور كلها لا غنى عنها للباحث الجاد الذى ينتظر من بحثه البُشرى بالخير، واللَّبنة التى تضاف إلى صرح الكتابة العربية التى تفصح عن هوية القلم العربى الجاد فى تعامله مع نصوص التراث التى تزخر بها المكتبة العربية.

وأولى خطوات البحث الأدبى الاقتناع بموضوع الدراسة ومحاولة خلق جو من المحبة والود بل العشق والتعلق والهيام بين الدارس وموضوع درسه، فلا ينصح بأن يكتب باحث بحثًا فى أمر يستهجنه وهو له من الرافضين، فلا إجبار فى كتابة وإذا أجبر كاتب بدت كتابته بالمصطنعة والمتكلفة وتلك الكتابة الخالية من روح الوجدان، وتعبير العاطفة والاقتناع.

ويحدد الباحث بحثه ويعدّ العُدّة له، النفسية قبل المادية، ويهيئ له مادة علمية تكفى وتغطى وتشمل فروع البحث ومناحيه، ويختار ظاهرة أو اتجاها قد يكون بارزًا وقد لا يكون فى شعر ذلك الشاعر الذى وافق هواه هوى الباحث واتفقت ميوله مع ميله أو مع ما أبدعه.

وكلما كان الاتجاه غير ظاهر أو معروف كان جمال الوصول، وروعة الكشف، وبهاء الاستجلاء ما يجعله فى مصاف البحوث وفى قمتها، فهذا أديب عرف عنه الشعر ولم يعرفه الآخرون كاتبًا، فلنبحث فى تراثه النثرى ونجعنه من الكتاب الذين أهملهم الباحثون كما كان الحال فى كتابنا عن نثر أبى الفرج الببغاء؛ وهذا شاعر قد تسيطر البداوة على كثير من ألفاظه وأساليبه ومعظم مضامينه واتجاهاته ولغته فعلينا أن ننهض للبحث عن الأثر الحضارى فى شعره، وليس معنى هذا مناقضة الشائع ومخالفة المعروف والسباحة ضد التيار، ولكن يقصد بذلك البحث عما كان غامضا، وإظهار ما كان مختفيا، وإعداد الوسائل الفنية الموثقة التى تؤكد هذا الاتجاه الجديد الذى توصل إليه الباحث، وربما بدا هذا أيضًا فى دراسة لنا عن زهد المجان، تلك الطائفة التى عرفت بالخلاعة والمجون وغيرهما حتى يظهر لهم موقف مع التوبة والاستغفار.

وصاحب هذه الدراسة شاعر من شعراء العصر الأموى، ذلك العصر الواقع بين عصرين: الجاهلية والعباسية، وذلك الشاعر الذى قد يجهله دارسو الأدب العربى مع عظيم الأسف، وينكره خريجو أقسام اللغة العربية والذين هم من المفروض أن يتولوا أمور التثقيف الأدبى والتوجيه اللغوى للناشئة وشباب الدارسين، وقد يشعر البعض بالغرابة حين يستمع إلى اسم هذا الشاعر «عدىّ بن الرِّقاع العَامِلِىّ»، ولا يعرفون غير المتنبى وبشار وأبى نواس والبحترى وامرىء القيس وزهير وهذه الأسماء اللامعة وقد لا يعرفون أسرار صنعتهم الفنية واتجاهاتهم الأدبية وكفاهم أنهم سمعوا بهم، أما أمثال عدىّ بن الرِّقاع وهُدْبة بن الخشرم العُذرى ويزيد بن الطثرية

وغيرهم فلا يزال هؤلاء الشعراء فى حاجة ماسة إلى مجهودات الباحثين فى الكشف عن تراثهم وفى التعامل مع تلك النصوص التى خلفوها وفى البحث عن اتجاهات خاصة يستدعيها البحث والدرس، ولذا كانت النية إلى التعامل مع عدىّ بن الرِّقاع العاملىّ فى اتجاه محدد ومعين من اتجاهات كثيرة يحملها شعر هذا الشاعر العربى كما تؤكد ذلك نصوص شعره الموثقة فى ديوانه.

وقضية ديوان الشاعر، والعثور على شعره، والتَّحقُّق منها، ومضاهاة هذا الشعر بطبعات أخرى من ديوانه وبنصوص قد تضاف وأخرى قد يشك فى أمر نسبتها إلى صاحبها، قضية يهتم بها المحققون وجامعو الشعر، وتحقيق الشعر وجمعه هو الآخر له مناهجه وطرائقه، ووسائله وأدواته، وليس هنا مجال للحديث فى ذلك الشأن، ولا يعنى هذا براءة ذمة الباحث والمحلل للنصوص الأدبية من قضية التحقيق، بل عليه الاعتماد على حواسه وذوقه وبداهته الفنية فى قبول نص وفى رفض آخر حسب تعامله مع منهج الشاعر ومدرسته واتجاهه.

إن العثور على النسخة الأصلية لديوان عدىّ بن الرِّقاع العاملىّ، وقيام باحثَين جليلين هما: الدكتور نُورى حمودى القيسى، والدكتور حاتم صالح الضامن[1] بنشر الديوان بعد تحقيقه، يدفع الباحثين إلى دراسة شعر عدى دراسة فنية، تستجلى صوره محاولةً لإضافة الجديد، الذى يفيد دراسة الأدب فى عصر يتميز بالدعوة إلى العروبة، والحفاظ على دين الإسلام ولغته الشريفة.

ولم يعثر على ديوان عدىّ بن الرِّقاع العاملىّ إلا فى وقت قريب وأشار إلى وجود ديوان عدىّ عدة مصادر قديمة، منها الفهرست لابن النديم[2]، والبغدادى فى خزانته[3]، ولم تذكر الدراسات الحديثة ديوان عدىّ، اللهم إلا إشارة الدكتور حسين على محفوظ إلى أن لديه صورة عن مخطوطة لديوان عدىّ بن الرِّقاع بطهران، ونشر مقالة فى وصفها فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق[4].

وقام المحقق خليل مردم[5] بمحاولة لجمع ما أمكن جمعه من أشعار عدىّ، من قصائد ومقطوعات وأبيات، جمعها من بطون كتب الأدب واللغة والتاريخ والتراجم، وتقويم البلدان،

---

(١) ديوان عدى بن الرقاع العاملى – ت: د. نورى حمودى ود. حاتم صالح – مطبعة المجمع العلمى – العراق ١٩٨٧.

(٢) ابن النديم (محمد بن إسحق) الفهرست – ت: رضا تجدد – طهران ١٩٧١ – ص ١٧٨. ص ٣٩٩.

(٣) البغدادى (عبد القادر) – خزانة الأدب – ت: عبد السلام هارون – القاهرة ١٩٧٩ . ص ١٠.

(٤) العدد ٣٣ لسنة ١٩٥٨ ص ٥٢٠.

(٥) خليل مردم – الشعراء الشاميون – ت: عدنان مردم – دار صادر – بيروت.

ويشير مردم إلى عدم العثور على ديوان عدى مخطوطًا، كما أن عدى بن الرِّقاع من الشعراء الذين لم تحظ دواوينهم بالعناية، ولم يحظ شعرهم بالدراسة الوافية[1].

ويذكر «مردم» أن ديوان عَدىّ مفقود، ولم يبق من شعره غير القليل، وهذا القليل غير مجموع فى مكان واحد يمكن الرجوع إليه بل هو مبعثر فى بطون الكتب، لذلك فقد انصرف مدة من الزمن يجمع كل ما عثر عليه من شعر عدىّ فى بطون كتب الأدب واللغة والتاريخ والتراجم وتقويم البلدان[2].

وكان خليل مردم يجد القصيدة من شعر عدىّ مفرّقة فى أمكنة متعددة فيضم بعضها إلى بعض، وقد يجد أبياتًا من بحر واحد، وقافية واحدة مبعثرة على سبيل الاستشهاد، فيجتهد فى ترتيبها، ليجعلها قطعة واحدة متتالية بعد التَّحرِّى والرَّوِيَّة[3]، وهى محاولة تدل على اهتمام مردم وحرصه على تقديم شعر عدىّ إلى القراء، إلا أن صاحبى ديوان عدىّ يريان أنها طريقة خطيرة تفقد النص ترتيبه وتقتل فيه وحدته التى أرادها الشاعر[4].

وفى كتاب «الطرائف الأدبية»[5] محاولة أخرى، قام بها عبد العزيز الميمنى، أثبت فيها ثلاث قصائد لعدىّ بن الرِّقاع مشيرًا إلى مصدرها فى مقدمة شعر حُميد بن ثور الهلالى، وهى القصائد اللامية والدالية والرائية، يأتى بها صاحب الطرائف، وعنوانها قصائد نادرة، وقد لاحظنا أنها جاءت موافقة لتسلسلها فى الديوان، وأن شروحها مأخوذة من شروح الديوان بعد اختزالها[6].

ويهتم باحثون آخرون بشعر عدىّ بن الرِّقاع العاملى، ولم يشر أحدهم إلى ديوانه، ويبدو أن مصدر تعرّفهم على شعره هو كتب اللغة ومعاجم البلدان، ومع ذلك فقد توصلت دراساتهم إلى آراء قيمة، تلقى الضوء على شعر عدىّ، وتحدد ملامحه الفنية، وتؤكد شاعريته، ولو أتيح لأصحاب هذه الدراسات ديوان عدىّ مطبوعًا، لأضافوا الكثير الجديد والمفيد.

ومن هذه الدراسات ما كتبه جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية، وما كتبه د. شوقى ضيف فى التطور والتجديد فى الشعر الأموى، ود. مصطفى الشكعة فى رحلة الشعر بين الأموية والعباسية، ود. عمر فروخ فى تاريخ الأدب العربى، ود. يوسف خليف فى تاريخ الشعر العربى

---

(١) عدنان مردم – الشعراء الشاميون – دار صادر – بيروت . ص ٧.

(٢) خليل مردم – الشعراء الشاميون . ص ٨.

(٣) المصدر السابق . ص ٤٣.

(٤) د. نورى حمودى – د. حاتم صالح – مقدمة ديوان عدىّ بن الرِّقاع . ص ٧.

(٥) عبد العزيز الميمنى – الطرائف الأدبية – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان . ص ٨١، ٨٧، ١٩٢.

(٦) ديوان شعر عدىّ بن الرِّقاع . ص ٢٨.

فى العصر الإسلامى، على حين أغفلت كثير من الدراسات التى اهتمت بالشعر الأموى، وشعر الشام، شعر عدىّ، واكتفت بإشارة بسيطة استنادًا على رأى صاحب الأغانى وغيره فى فقدان الأمل فى العثور على ديوان عدىّ.

وظاهرة ضياع الشعر من الظواهر التى آن الوقت كى يدرسها باحث يهتم بامر التراث، وبالبحث فى الجديد، وهى حقيقة واضحة فى تاريخ الأدب العربى فى عصوره القديمة، وهى تختلف عن ظاهرة الانتحال فى العصر الجاهلى، حين كان الانتحال أمرًا تفرضه ظروف الثقافة والكتابة والأمية وأخلاقيات الرواة وطبيعة بيئة العرب قبل الإسلام.

بيد أن ظاهرة ضياع الشعر، واختفاء مخطوطات الدواوين لشعراء لهم فى تاريخ الأدب دور لا ينكر وفى عصور الكتابة والثقافة، أمر يستحق التحليل والكشف عن دوافعه وبواعثه، فقد يضيع شعر شاعر معروف، وقد يبقى شعر شاعر مغمور، وقد يرجع ضياع شعر إلى حقد بعض الشعراء على غيرهم من الشعراء الذين فاق صيتهم، وقد ترجع إلى ظروف سياسية واتجاهات فكرية، وميول مذهبية أو عقائدية حزبية فى بعض الأحيان.

والقارئ لفهرست ابن النديم، يعرف جسامة هذا الخطر الواقع على الأدب والأدباء، فقد ضاع من الشعر العربى أكثر مما وصل منه، وقد غاب من الموروث الفكرى أكبر مما حضر منه، وقد اعترف بذلك نقاد العرب القدامى فقد أكّد بعضهم بأن ما وصل إلينا من شعر العرب لا يتعدى عُشره، ولو وصل إلينا معظمه لعرفنا الخير الكثير عن أدبنا العربى.

ويعلل خليل مردم ضياع شعر بعض الشعراء، ومنهم عدىّ بن الرِّقاع، ويرد ذلك إلى «العامل السياسى، كتشويه بنى العباس تاريخ بنى أمية، والسعى الحثيث لطمس آثارهم الفكرية والأدبية، ومنها غزوات التتار، وإحراق المكاتب، وإلقاء الكتب فى دجلة، ومنها جهل أسود ران على البلاد العربية زهاء أربعمائة سنة تقريبًا أيام العثمانيين، صرف الناس عن العلم، حتى بات المتعلم أندر من الذهب، ومدت الأيدى الجاهلة إلى المكاتب الخاصة تعبث بالمخطوطات جهلاً بقيمتها»[1].

ويضيف محققا ديوان عدىّ بن الرِّقاع سببًا مهمًا لضياع شعره، وهو حبه الشديد لبنى أمية، ودفاعه المستميت عن هؤلاء الرجال الذين وجد فيهم «أصالة الانتماء، ووفاء العروبة، وشرف الدفاع عن وجودها، والحفاظ على شخصيتها العربية الخالصة»[2].

---

(١) خليل مردم – الشعراء الشاميون . ص ١٠.

(٢) ديوان شعر عدى بن الرقاع ت: د. حمودى، د. حاتم . ص ١٤.

إن ضياع شعر عدىّ ليس غريبًا، لما عرف عنه من حب للعروبة وتعصب لأبطالها، وإشادته بالفتوحات والانتصارات والبطولات العربية لرجال بنى أمية.

وعدى بن الرقاع شاعر حضرى. «عاش فى دمشق طول عمره، واحتفى بالوليد بن عبد الملك، يتفيأ نعماه ويعيش فى حماه[1].

ويرى د. حسين عطوان[2] أنه أردنى الأصل، ثم رحل إلى دمشق، ولعله سكنها، ولعله كان يكثر الإقامة بها ثم يرجع إلى موطنه الأول».

ويؤكد تحضر عدىّ صاحبا ديوانه، فقد كان «شاعرًا حضريًا يتسلسل ظل انعيم فى أبياته، وينساب رونق الحضارة فى شعره، وتتناثر مفردات الحياة الاجتماعية فى صوره، وهو يستعيد التشبيهات التى أملتها عليه طبيعة الحياة، ولونتها رفاهية الواقع الجديد الذى عاشه الإنسان العربى فى ظل التقاليد الحضرية»[3].

وهذه الدراسة تبحث عن أثر الحضارة فى شعر عدى، فى المضمون الفكرى وفى الصياغة الفنية، فى عصر اتسم بالتحضر بفعل الولاة وفعل التاريخ والظروف والثراء، كما أن عديًا كان يتمثَّل معانى الانتماء العربى، فضلاً عن كونه من لشعراء الشاميين، غير الوافدين، وكان ببلاد الشام «غير قليل من الشعراء، وأنهم كانوا من اليمنية، ومن القيسية، ومن بنى أمية»[4].

ويرى د. شوقى ضيف أن الشعر فى الشام لهذا العصر كان «محدود النشاط، وكان فى جملته طارئًا، إما مع قبائل قيس، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة، وإما مع البيت القرشى نفسه، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم»[5].

وقد أشيد بشعر عدىّ، وأكدت الآراء نضجه الفنى، واستشهد المفسرون وأصحاب المعاجم والبلاغيون بشعر عدى، «ومن ظواهر الاستشهاد، أن ياقوت الحموى قد استشهد به فى أكثر من مائة وعشرة مواضع، وهو عدد غير قليل قياسًا بما يستشهد به ياقوت لشعراء آخرين»[6].

واستشهد بشعر عدىّ صاحب اللسان فى أكثر من مائة موضع، اعتمد عليها صاحب التاج، وأضاف عليها أكثر من ثلاثين موضعًا، لم يأت بها صاحب اللسان «وهى ظاهرة تؤكد

---

(١) د. مصطفى الشكعة – رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية – عالم الكتب – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٩٧٩ . ص ٢٤٥.

(٢) د. حسين عطوان – الرواية الأدبية فى بلاد الشام فى العصر الأموى . ص ٧١.

(٣) ديوان عدى . ص ١٦.

(٤) د. حسين عطوان – الرواية الأدبية فى بلاد الشام فى العصر الأموى . ص ٧١.

(٥) د. شوقى ضيف – العصر الإسلامى – الطبعة التاسعة – دار المعارف – ١٩٨١ . ص ١٦٥.

(٦) ديوان عدى . ص ١٥.

اعتماد اللغويين على شعره ووقوفهم على ديوانه، ويمكن الوقوف على هذه المواضع فـى تخريـج شعر الشاعر»[1].

هذا كله يؤكد ضرورة دراسة شـعر عـدى، ويوضـح أهميـة البحـث فـى هـذا الجـانب الـذى اختارته الدراسة طريقا لها، وهو جانب الحضارة فى شعر الشاعر.

أما عن المنهج الذى حاولت الدراسة الالتزام به، فهو المنهج التكاملى الذى يتوسـل بـأدوات كل المناهج النفسية والاجتماعية والاستقرائية والنقدية والأسلوبية وغيرها.

وقد قسّمنا هذا البحث إلى مدخل وقسمين كبيرين بعد هذا التمـهيد الـذى بـدأ مطـولاً بعـض الشىء، ويدور المدخل حول تحديد مفهوم الحضارة وأثر البيئة فى تشكيل شخصية الشاعر وفى شعره، وموقف الحكام، ثم شخصية الشاعر. ويعالج القسم الأول مضامين الشعر التى بدت فيها آثار الحضارة وطوابعها.

ويهتم القسم الثانى بدراسة أثر التحضر فى وسائل التشـكيل الفنـى فـى بنـاء القصيـدة وفـى اللغة والمفردات والتراكيب وفى الصور الفنية ومصادرها الحضارية وأنماطها ووظائفها.

ويتفرع المدخل إلى استجلاء المفهوم وتحديد المصطلح، ورؤية البيئة، دمشق والشام والطبيعة، والحكام ودورهم فى تأكيد ملامح الحضارة لدولة بنى أميـة العربيـة، ثـم مولـد الشـاعر وموطنـه دمشق، وخصاله النفسية التى بدت آثار الحضارة واضحة فيها، محددة ملامحها، ومـدى تـأثر الشاعر بالبيئة والطبيعة المتحضرة وظروف العصر السياسية، ومظاهر الحياة الاجتماعية وملامـح التحضر فيها.

ويتفرع القسم الأول من الدراسة إلى مضامين شعر عدىّ المتأثرة بالتحضر، فـى السياسـة وفـى التعبير عن وجهة نظر الحكام والالتزام بمبادئ الدولة العربية، والغزل وتصوير المرأة المتحضرة، ووصف البيئة ومظاهر الحياة الاجتماعية، وأدوات الترف والرفاهيـة، وتصويـر البنـاء والعمـران والمصانع والقرى والمدائن والقصور، وكذلك الإشادة بالقيم الخلقية والمبادئ الإنسانية المتحضرة.

ويتوزع القسم الثانى بين دراسة البناء الفنى لقصيدة عدىّ، وتأثير البناء بالبعد عن الأعرابيـة والوحشية التى هى سمة البنـاء البـدوى، وتـأثر الشـاعر بـروح الحضـارة وجوهرهـا فـى مطـالع قصائده، وفى خواتيمها وفى انتقالاته بين أفكار القصيدة وجزئياتها.

وقد يبدو أثر التحضر فى لغة الشاعر، وفى انتقائه مفرداته التى شربت من معين الحضـارة، وصوَّرت معالم التحضر فى البيئة المحيطة بالشاعر، كذلك فى انتقـاء الشـاعر للصـور الجماليـة الفنية التى تعتمد فى تشكيلها على عناصر حضارية.

---

(١) ديوان عدى -- ص ١٦.

ولعل فى هذه المحاولة استجلاء لجانب من جوانب فن عدىّ بـن الرِّقـاع العـاملىّ، وتـأكيدًا لتحضر الأمة العربية الإسلامية، فـى عصـر كـانت فيـه الأمـة العربيـة تشـع بأنوارهـا، وتزهـو بازدهارها على أمم العالم قاطبة، فاتحة غازية منتصرة، رافعة أعلامها، عاليا صوتها من خـلال الشعراء العرب، المؤمنين بالعروبة والإسلام والأمة، وبالقائمين على أمور هذه الأمة.

وكان عدىّ بن الرِّقاع العاملىّ من أصحاب الأناشيد الوطنية، التى ترنّمـت بانتصـارات قـادة الأمة العربية، وتغنت بحضارة هذه الأمة، وارتقـاء فكرهـا، وسمـو أسـلوبها فـى التعـامل وفـى رعاية الرعية، وهو ما يفخر به كل عربى.

ولعلنا نوفق فى التعبير عما قصدنا إليه فى بحثنا هـذا، ولعـل فيـه خـيرًا ينفـع بـه القـارئ المثقف العربى المحب لأمته وعروبته وأدب هذه الأمة وأدب أدبائها ولعل فـى الدراسـة منـهجًا يفيد ناشئة الباحثين.

والله الموفق والمستعان وهو خير الراشدين.

د. على أبو زيد

رأس البر فى ٩ يناير ١٩٩٨

مُدْخَـــلْ

– الحَضَارَة – البِيئَة

– الحُكَّـام – الشَاعِر

يقتضى منهج البحث العلمى الدقيق الدقة فى ارتياد المسالك الطبيعية التى تؤدى حتمًا إلى نتائج طيبة تعتمد على الفروض الصحيحة . ولذا فكيف يبحث باحث فى آثار الحضارة فى فكر وأسلوب الشاعر دون أن يبحث فى بواعث هذا الاتجاه ومثيراته ؟ فلا تأثير لظاهرة فى إبداع أديب دون مثير ، والمثيرات هنا متعددة ، ومتشعبة ، ورأى البحث أنها موزعة بين عدة تيارات طبيعية يسلكها البحث بعد تحديد المفهوم والمصطلح أولاً ، ثم البحث عن مناحى التحضر ، ومظاهر الترف والرفاهية ، ومعالم الحضارة المادية والمعنوية فى بيئة الشاعر المبدع ، وتتوقف مظاهر التحضر فى فكر وأسلوب الشاعر على قدرة تفاعله مع البيئة المحيطة ، وعلى مدى إحساسه بمظاهر الترف والرفاهية ، وألوان الجمال التى وهبها الخالق للمكان وأنشطة الإنسان فى الإحساس بهذا الجمال والتأثر به.

كما تتوقف معالم الظاهرة أيضًا على دور الحكام فى تنمية الجمال فى البيئة المحيطة . ومدى إحساسهم والقدرة على التذوق والرغبة فى أن تبدو الصورة المحيطة أكثر تألقا وتأنقًا وأعمق جمالاً وحسنًا.

ويأتى فى نهاية هذه المثيرات تلك النفسية الحساسة للمبدع الفنان الذواق للجمال والمتحضر من حوله حتى ينصهر كل هذا فى بوتقة واحدة تفرز مادة متجسدة من الإحساس بالتحضر والجمال من حوله ومن داخله فيبدو هذا كله واضحًا جليا فى فكره أى فى طريقة تفكيره، أو طريقة تعامله مع المرئيات والمحسوسات من حوله وهى ما تعرف بأفكار الشاعر أو بمضامين شعره وكذلك أثر التحضر فى طريقة التعبير عن هذا التفكير وهو أسلوب التشكيل الجمالى والصوغ الفنى المتأثر بروح التحضر .

(١) الحضـــارة
المفهـــوم والمصطلـح
فى اللغة وفى الأدب

يتوقف نجاح البحث وقيمة الدراسة على فـهم البـاحث للمفـهوم أو المصطلـح لذلـك التعبـير الذى ارتضاه محورًا لدراسته ، وكم من دراسـة أخفـق صاحبـها فـى التوصـل إلى هدفـه ، وفـى تحقيق نتائج طيبة مرضية تدل على مدى فهمه للمصطلح الذى يتعامل معه فى دراسته .

فقد يفهم الباحث مفهوم الحضارة بمنـهج يختلـف عـن الاتجـاه العلمـى ، وقـد يفـهم آخـر مصطلح البداوة بطريق مغاير لما يجب أن يكون عليه الفهم وكذا مصطلحات أخرى مثـل الذاتيـة والغيرية والانتماء وروح الوطن والإنسان وغيرهم ، وكذلك مفـاهيم نقديـة كثـيرة ومتعـددة يـؤدى الاختـلاف فـى تحديـد مفهومـها إلى أن يضـل البـاحث الطريـق أو أن يرتقـى إلى قمـة النضـج والاستواء فى تحقيق أهداف البحث العلمى .

وعلى هذا فإن تحديد المفهوم تتوقف عليه أمور كثـيرة تـؤدى بـالضرورة إلى تحسـين النتـائج وتحقيق الهدف الذى ارتضاه البحث ، والخطأ فى التعامل مع المفهوم يترتب عليه أخطاء يضل البحث معها الطريق وتضيع فيه المعالم وتتداخل الأمور وتتشابك لدرجة الغموض والتعقيد .

ومن الضرورى أن يتنبه الباحث الذى يتعامل مع المصطلح دوما إلى تحديد المفـهوم اللغـوى ، ثم التوصل إلى المفهوم العلمى ، وقد يكون بين المفهومين تصالحٌ وقد يكون بينهما بعدٌ وتنافرٌ .

اهتم الباحثون والمؤرخون بتحديد مفهوم الحضارة ، كما اهتموا أيضا بتوضيح ملامح نقيضـها وهو مصطلح البداوة ، وعرف المهتمون معنى الحضارة وحـددوا مراحلـها التاريخيـة ، وأظـهروا دور العرب فى التَّمثُّل بالحضارات القديمة التى كانت فى الأمـم التـى نزلـوا بـها ، ولم يغفلـوا عوامل الحضارة التى أسهمت فى تحوّل أمة من البداوة إلى التحضر .

وفى لسان العرب لابن منظور مادة حضر (الحضر خلاف البدو ، والحاضر خلاف البـادى ، وفى الحديث لا يبع حاضر لباد ، والحاضر المقيم فى المدن والقـرى ، والبـادى المقيـم بالباديـة والحضارة : الإقامة فى الحَضَرْ .

قال الشاعر القطامى :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجـــال باديةٍ ترانا

ورجل حضر : لا يصلح للسـفر ، وهـم حضـور أى حـاضرون ، والحضـر والحضـرة خـلاف البادية ، وهى المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصـار ومسـاكن الديـار التى يكون لهم بها قرار)[1] .

يربط ابن منظور كما فهم العرب بين الحضارة والاستقرار وبـين البـداوة والتنقـل والترحـال ، وقد يكون الماء سببًا فى البقاء ومن هنا قد تنشأ الحضارات بجوار الماء .

فقد قيل للمقيم على الماء أى الساكن بجوار حاضر وجمعه حضور واجتماع الناس حـول المـاء هو الذى يكـون الحـى العظيـم أو القـوم ، ويضيـف ابـن منظـور فـى تحديـده لمفـهوم الحضـارة (الحاضرة والحاضر : الحى العظيم أو القوم ، وقال ابن سيدة : الحى إذا حضـروا الـدار التـى بها مجتمعهم ، قال :

فى حاضرٍ لجِبٍ بالليل سامِرُهُ فيه الصَّواهِلُ والرايـات والعَكْرُ

فصار الحاضر اسما جامِعًا كالحاج والسامر والجامل ونحو ذلك . قـال الجوهـرى : هـو كمـا يقال حاضر وهو جمع كما يقال سامر للسّمار وحاج للحجاج .

قال حسان :

لنا حاضِرٌ فَعَمٌ وبادٍ كأنّه قطينُ الإلـه عِزَّةً وتكرُّما

وفى حديث أسامة : وقد أحاطوا بحاضرٍ فعم ، والعرب تقول حـى حـاضر بغـير مـاء ، إذا كانوا نازلين على ماء ، يقال حاضر بنـى فَلان علـى مـاء كـذا ويقـال للمقيـم : حـاضر وجُمـع حضور، وهو ضد المسافر ، وفلان حاضر بموضع كذا أى مقيم به ، ويقـال : علـى المـاء حـاضِرٌ وهؤلاء قوم حُضَّار ، إذا حضروا الماء ومحاضر .

قال لبيد :

فالواديان وكُلُّ مَغْنىً مِنْهُمُ على المـياه محاضِرٌ وخيامُ

قـال : وحضـرة مثـل كـافر وكفـرة ، وحـاضرة صفـة طائفـة أو جماعـة ، وحـاضروا الميـاه وحُضّارها: الكائنون عليها قريبًا منها لأنهم يحضرونها أبدًا[2] .

ويضيف صاحب اللسان توضيحا آخر للحضر فقد أطلق عليـهم العـرب كلمـة (المـدر) وعلـى أهل البادية كلمة (الوبر) فيقول ابن منظور فى مادة مدر :

---

(١) لسـان العرب – ابن منظور – دار المعارف – القاهرة ١٩٨١ – مادة حضر – مجلد ٢ – ص ٩٠٧ .

(٢) ابن منظور – لسان العرب – مادة حضر .

(وبنو مدار يعنى أهل الحضر ، وقول عامر للنبى صلى الله عليه وسلم : لتا الوبر ولكم المدر ، إنما عنى به المدن أو الحضر لأن مبانيها إنما هى بالمدر ، وعنى بالوبر الأخبية لأن أبنية البادية بالوبر)[1] .

وجاء فى اللسان أيضًا (وكل من نزل على ماءٍ ولم يتحول عنه شتاءً ولا صيفًا . فهو حاضر سواء نزلوا فى القرى والأرياف والدور المدرية أو بنوا الأخبية على المياه ، فقروا بها ورعوا ما حولها من الكلأ)[2] .

وفى المعجم الوسيط[3] تعنى كلمة / حضر / أن فلانا أقام فى الحضر ، و (الحضارة) هى الإقامة فى الحضر . وهى ضد البداوة وقد يعنى بالحضر المدن والقرى والريف ، ومن الناس ساكنى الحضر ، والحضارة (مرحلة سامية من مراحل التطوّر الإنسانى ، ومظاهر الرقى العلمى ، والفنى والأدبى والاجتماعى فى المصر) .

ولما كانت الحضارة ضد البداوة ونقيضًا لها كان فى تعريف مفهوم البداوة ما يسهم فى تحديد ملامح مفهوم الحضارة حيث الضد والنقيض ، فقد جاء فى اللسان (بدا القوم بَدْوًا أى خرجوا إلى باديتهم ، مثل قتل قتلاً ، وبدا القوم بَداء خرجوا إلى البادية وقيل البادية بادية لبروزها وظهورها ، وقيل بادية لأنها ظاهرة بارزة ، وقد بدوت أنا وأبديت غيرى وكل شىء أظهرته فقد أبديته ، ويقال بدا لى شىء أى ظهر ، والبادية اسم للأرض التى لا حضر فيها ، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعى فى الصحراء قيل : قد بدوا ، وقيل من بدا جفا ، وتبدّى الرجل أقام بالبادية ، وتبادى تشبّه بأهل البادية ، وفى الحديث : لا تجوز شهادة بدوى على صاحب قرية ، قال ابن الأثير : إنما كره شهادة البدوى لما فيه من الجفاء فى الدين والجهالة بأحكام الشرع ولأنهم فى الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها)[4] .

وفى تحديد معاجم اللغة لمصطلح الحضارة مدخل للتوصل إلى ملامح المفهوم ، ففى الحضارة حضور أى تواجد وبقاء واستقرار أى سكن فى أبنية ومدن ومبانى بالأحجار يقتضيها تواجد الماء وارتباط الإنسان بمنابعه حيث الكلأ والحياة والنماء ، بيد أن البادية تعنى الوضوح والظهور وكشف الأشياء ومنها على ما يبدو أى ما يتضح ويظهر ، وقد يفتقد أهل البادية للعلم والثقافة وهما أساسيان لبناء مجتمع الحضارة . ومن هنا يدخل الباحث فى الحضارة ويلتقط الخيط

---

(١) ابن منظور – مادة مدر .

(٢) المرجع السابق – مادة حضر .

(٣) المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية – د . إبراهيم أنيس وآخرون – دار إحياء التراث الإسلامى – قطر – مادة حضر .

(٤) لسان العرب – مادة بدا .

ويأخذ بطرفه ويسير إلى منتهاه حيث يصل إلى تحديد مفهوم الحضارة بالعلم والثقافة والترف والكمال فيسير ابن خلدون فى مقدمته خطوات بعد أصحاب المعاجم اللغوية ليحدد مفهوم الحضارة بأنها : (تفنن فى الترف ، وإحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية ، وسائر عوائد المنزل وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع فى استجادته والتأنق فيه ، وهى تتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعّم بأحوال الترف ، وما تتلوّن به من العوائد)[1] .

إذن يبدأ المصطلح فى الوضوح ، يعنى معرفة الباحث أنه نمط من السلوك وطريق من التعامل فى الحياة ومع معالمها ، وأن التحضر سلوك ضدى ومناقض لسلوك البدو فى البادية (فالبداوة لا تعنى التجوال عبر الصحارى بغير هدف بل تمثل أقصى نوع من التكيف والتوافق للحياة البشرية مع الظروف القاسية)[2] .

وهى نمط من الحياة (قائم على التنقل الدائم للإنسان فى طلب الرزق حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار عليها على كمية الموارد المعيشية المتاحة من ناحية ، وعلى كافة الوسائل المستعملة فى استغلالها لها من ناحية أخرى ،وعلى مدى الأمن الاجتماعى والطبيعى الذى يمكن أن يتوافر من جهة ثالثة)[3].

البداوة تنقل وترحال لا يشترط فيها الصحراء بل هى درب من السعى والتنقل وراء مصادر الرزق (وقد يعتبر البحر أحد دروب البداوة لأن الصياد يمارس من خلاله حياة بدوية تعتمد على التنقل وتتبع مصادر رزقه)[4].

ويضيف باحث آخر (أن ليس كل حياة بداوة هى حياة صحراء)[5] . ويرى البعض أن البداوة هى الأصل والحضارة فرع ، والحضرى (لا يتشوق إلى أحوال البداوة إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل المدينة)[6].

ويرى البعض أن البداوة أقرب إلى الخير من الحضارة فقد تعنى العفة والبساطة والصراحة والتعاون وحماية الجار والتضحية والفداء والكرم وغيرها وكل هذا بتأثير البيئة المحيطة للإنسان الكائن بها ..) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون . ص ١٥٤ .

(٢) د. صلاح الفوال – دراسة فى علم الاجتماع البدوى – ط ١ . ص ٢٩٩ .

(٣) د. صلاح الفوال – دراسة فى علم الاجتماع البدوى – ط ١ . ص ٢٩٨ .

(٤) د. صلاح الفوال – دراسة فى علم الاجتماع البدوى . ص ٣١٠ . ص ٣١١ .

(٥) د. لويس كامل مليكة – قراءات فى علم النفس الاجتماعى – جـ ١ – ط ٢ . ص ٦٦٠ .

(٦) ابن خلدون – المقدمة – جـ ٣ . ص ٤١٣ .

ويضيف ابن خلدون فى مقدمته قوله بأن : (الحضارة هى أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران ، زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الدول)[1].

«وللتأنق فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة، لا يحتاج إليها عند البداوة»[2].

والحضارة فى الإنجليزية Civilization وفى الفرنسية Civilisation واللفظ فى كلتا اللغتين مشتق من الأصل اللاتينى Civis ويعنى مدنى أو Civitas ويعنى مكان تجمع الناس، وحضورهم لإقامة مصالحهم وحياتهم المشتركة وحفظها[3].

ويعرفها د. حسين مؤنس فى قوله «هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودًا أم غير مقصود، سواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية، إذن فمقياس الحضارة هو مدى ذلك التحسن ماديا ومعنويًا، ومن الواضح أن التَّحسُّن المعنوى مقدّم على التحسن المادى، لأن الغاية القصوى للتحسُّن هى شعور الإنسان بالأمانة والاطمئنان والكفاية، وقيام مجتمعه على التفاهم والتعاون والمحبة، بدلاً من قيامه على التحايل والأنانية والقانون الذى تنفذه قوة غالبة»[4].

ويعرّف الحضارة باحث آخر بأنها عطاءات الإنسان مع البيئة فى قوله «الحضارة نتاج عوامل منها، العامل الثقافى وما يعطيه الفكر والوجدان من عقل وعاطفة، وفلسفة وعلم وفن، ومنها عامل المدنية وما يعطيه من تفاعل الإنسان مع البيئة وتحديد للمحيط والزمان والمكان وحركة التاريخ»[5].

ويرى – أيضا – صاحب الحضارة المغربية أن «المجتمع هو مجال الحضارة ومقياسها فكلما كان مجتمعا نشيطًا حيًا كانت حضارته حية نشيطة وكلما أصيب بنكبة انعكس ذلك على حضارته ذاتها، وبما للحضارة من شمول واستمرار فإنها تستوعب عمل المجتمع تاريخيًا وحضوريًا»[6].

فالحضارة شرح لأحوال المجتمع الثقافية والفنية والعلمية والصناعية مع بيان طرق معيشته، وذوقه، وروحه العامة، وطرق تفكيره ومستوياته المختلفة التى تطبعه بطابع مميّز»[7].

---

(١) المقدمة . ص ٢٥٩ .

(٢) المقدمة . ص ٢٦١.

(٣) د. معن زيادة – معالم على تحديث الفكر العربى – المجلس الوطنى للثقافة – سلسلة عالم المعرفة – ١١٥ يوليو ١٩٨٧ – جـ ١. ص ٤٨.

(٤) د. حسين مؤنس – الحضارة – الكويت ١٩٧٨ . ص ١٣.

(٥) الحسن السائح– الحضارة المغربية عبر التاريخ– ط ١ – مطبعة النجاح بالمغرب – ١٩٧٥ – جـ ١ . ص ٧، ٨.

(٦) الحسن السائح – الحضارة المغربية عبر التاريخ – دار الثقافة – الدار البيضاء – المغرب – ط أولى – ١٩٧٥ . ص ١٩.

(٧) أحمد شلبى – موسوعة الحضارة الإسلامية – دار النهضة المصرية – ط التاسعة – ١٩٩٣ . ص ٢.

ويرى باحث آخر فى الحضارة أنها قامت أولاً على الاستقرار حول مصادر المياه، وزراعة الأرض، ثم صارت تدل على تنمية العقل والذوق، ولفظة Culture تعنى الحضارة وهى مأخوذة من اللاتينية Cultura من الفعل Goleve ومعناه حرث ونما. وبقيت هذه الدلالة فى العصور القديمة والوسيطة تعنى حراثة الأرض وتنمية المحصول، وتلك الدلالة نجدها فى كلمة Agri-culture، وقد يقصد بها فلاحة العقل وتنميته»[1].

ويربط البعض بين الحضارة والثقافة، وتتدخل الأمور وتتشابك، وقد تكون الثقافة ركنا من أركان التحضر، فلا حضارة لأمية، ولا حضارة لأميين، بل التقدم العلمى والمعرفى والثقافى من أهم أركان الحضارة.

ولكن المصطلح القريب إلى الحضارة، وقد يقوم مقامها أحيانا، أو قد يعد بديلاً لها وهو التمدين أو المدنية.

والمدنية فى اللغة تعنى الاستقرار والإقامة فى المدن، فيقال «مدن بالمكان أقام به، ومدن الرجل إذا أتى المدينة»[2].

وفى المعجم الوسيط «تمدّنَ عاش عيشة أهل المدن، وأخذ بأسباب الحضارة وتمدين عاش عيشة أهل المدن، وتنعّم وأخذ بأسباب الحضارة، والمدنية اتسّاع العمران»[3].

ويرى أحمد شلبى أن المدنية «هى الرقى فى العلوم العملية التجريبية، كالطب والهندسة والكيمياء، والزراعة، والصناعة، والاختراع الآلى، وسمى الرقى فى هذه العلوم مدنية، لارتباط الرقى فيها بالمدنية والاستقرار»[4].

والطريف فى هذا البحث أنه يدور حول حضارة فى العصر الأموى، والمعروف لدى الباحثين أن ازدهار الحضارة كان فى العصر العباسى، كما روت كتب الأدب والتاريخ عن مظاهر الترف والبذخ والإسراف الذى كان عليه الخلفاء فى قصورهم والندماء وحفلات الرقص والغناء والشرب وغيرها.

ويروى المسعودى فى مروج الذهب أخبارًا عن حياة البذخ عند العباسيين، وكذلك الشابشتى فى الديارات، وابن الساعى صاحب نساء الخلفاء، والطبرى فى تاريخ الرسل والملوك، وعبد المنعم ماجد فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى وغيرهم الكثيرون.

---

(١) د. حسين الحاج حسين – حضارة العرب فى عصر الجاهلية – بيروت – ١٩٨٤ . ص ١٥.

(٢) لسان العرب – مادة مدن.

(٣) المعجم الوسيط – مادة مدن.

(٤) د. أحمد شلبى – موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية – ١٩٨٤ . ص ٧.

والأجدر أن يفـرّق الباحث بـين مظاهر البـذخ والـترف والإسـراف، والاستهتار الأخلاقـى واللذائذ غير المشروعة، وبين التقدم الحضارى الذى يأخذ بيـد المجتمـع إلى الرقـى والازدهـار، وعلى الباحث أن يدرك أن الحضارة مستويات، وتوافق اجتماعى مـع مجموعـة معينـة بطريقـة بعيدة عن العشوائية والفوضى والهمجية، الحضارة لا تقتصر على عصـر أو مجموعـة مـن البشـر بل هى نمط معين وسلوك متقدم لمجموعة يحكمها نظام اجتمـاعى بعيـد عـن الفرديـة والذاتيـة والهمجية والفوضى الاجتماعية.

إن الحضارة قبل أن تكون مظاهر مادية تتسم بالتقدم والتحضـر فـهى - أيضًـا - نمـط سـلوك وتقاليد وأسلوب حياة، بل هى طريقة تعامل إنسان مع غـيره ومـع مـا حولـه بطريقـة يحكمـها القانون الاجتماعى المهذب ويدخل فى هـذا النمـط الـوازع الدينـى والتربيـة الإسـلامية والثقافـة والتربية السلوكية وعلوم النفس والعلوم الاجتماعية وطرق الحديث «التخاطب والملبـس والمسكن والطعام وغيرها من مظاهر الحياة المتنوعة».

ومما لا شك فيه فإن العصر الجاهلى فيه جوانب متحضرة لـدى شـعراء معينـين وفـى قبـائل معروفة، والباحث عن الجانب الحضارى فـى شـعر امرىء القيـس وغـيره يجـد مـا يحقـق لـه غرضه، والباحث عن الاتجاهات البدوية لدى شعراء عباسيين سوف يجد حتما الطوابع البدوية التى تسهم فى تحقيق ما يهدف إليه بحثه.

وعلى هذا فمفهوم الحضارة من المفاهيم غير المحددة ولكنها واضحـة أى غـير النمطيـة التـى تخضع لقالب مصبوب من قوالب التعريفات أو تخضع لعصر دون غـيره مـن العصـور، أو لبيئـة ما دون غيرها من البيئات بل هى نمط سلوكى بشرى أو جمعى يتأثر بالبيئة المحيطة وبظـروف الإنسـان الخاصة التى تتقبل هذا التأثر وهذا التكيف، فقد تكون البيئة متحضرة والشاعر الإنسان لا يحس بما حوله بل يملأ قلبه وفكره مناظر البادية بما فيها.

وقد تبارى الباحثون المستشرقون فى تحديد مفهوم الحضارة، وتعددت مؤلفاتهم التى وصلـت إلى المجلدات الضخمة، وقد سبقهم ابن خلدون فى مقدمته إلى أفكار كثيرة، ونظرًا لطبيعـة هـذا البحث وعجز مساحته عن استيعاب تعريفات الحضارة، فيجدر الإحالة إلى النظـر إلى مـا كتبـه «ول ديورانت» صاحب قصة الحضارة، «وألبرت اشفيتسـر» صـاحب كتـاب فلسـفة الحضـارة، ومن الباحثين العرب المحدثين جبرائيل جبور، وسعيد عاشـور، والطيـب النجـار والخربوطلـى وغيرهم.

ومن هؤلاء أيضا الفخرى فى الآداب السلطانية لابن القفطى، ومآثر الأنافة فى معالم الخلافـة للقلقشندى، ففى هذين المصدرين مادة غزيرة عن مظاهر الحضارة فى الخلافة الأموية.

وفى كتب البلدان – أيضًا – مادة علمية تفيد الباحث فى الحضارة، مثل كتاب البلدان لليعقوبى، ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه، والأعلاق النفيسة لابن رُسْتة، والمسالك و لممالك للأصطخرى، وأحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى، وصورة الأرض لابن حوقل، ففى هذه المصادر معلومات كثيرة عن الحياة الأدبية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية عن بلاد الشام فى عصر بنى أمية.

ويراجع – أيضًا – فى هذا الشأن الدراسات المختلفة عن النظم الإسلامية، مثل النظم الإسلامية للدكتور عبد العزيز الدورى، والنظم الإسلامية للدكتور إبراهيم المحدوى، والنظم الإسلامية للدكتور صبحى الصالح، والنظم الإسلامية للدكتور فاروق عمر.

ومن المستشرقين «ول ديورانت»، قصة الحضارة ترجمة د. زكى نجيب محمود، ومحمد كرد على فى «الإسلام والحضارة العربية» وآخرون.

والحضارة فى أوسع معانيها تعنى الرقى الفكرى والتقدم المادى، ولكل عصر من العصور حضارته الخاصة التى تطبعه بطوابع خاصة، تحمل روح البيئة وروح الإنسان، وتتوائم مع الظروف الطبيعية الإنسانية، والحضارة ملازمة للإنسان، وهى ترتبط بمحاولات الإنسان مع البيئة، من أجل التكيف مع الحياة فى ظل ظروف أفضل.

وقد اتصل العرب بحضارات عدة منها: الحضارة البيزنطية الرومية، والحضارة اليونانية اللاتينية، والحضارة الفارسية الكردية، وكانت الفتوحات طريقهم إلى الحضارة، وكان نزولهم فى هذه الأمم المغلوبة، واتصالهم بحضارتها سببًا فى مدنيتهم، فتأثروا بالحضارة الفارسية، والحضارة الرومية، واختلطوا بغيرهم من السكان الأصليين «وسرعان ما أخذ العرب يرتقون سلم الحضارة حتى بلغوا ذروتها، وكان ذلك نتيجة البيئة الجديدة التى عاشوا فيها»[1].

ولم يكن العرب متوحشين، بل كانوا على استعداد طيب لتمثل الحضارة، والتشبع بمظاهرها فأتقنوا تقليدها، وتفننوا فى الأخذ بها، وانغمسوا فى مظاهرها، وكانوا يتمتعون باستعداد عقلى وفطرى يؤهلهم لدراسة العالم الجديد، الذى نزلوا فيه أو خرجوا إليه، وكان شأنهم شأن غيرهم ممن تحولوا من طور البداوة إلى التحضر «فكانوا مقلدين فى طور المدنية وأحوالها للدول السابقة عليهم، ثم تطوروا بطور الحضارة»[2].

ويوضح ابن خلدون فى مقدمته، كيف تم تحضر العرب «فقد اتسعت أموالهم، وحصل لهم ما فوق الحاجة، فدعاهم ذلك إلى السكون والدعة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق

---

(١) د. على حسنى الخربوطلى – الحضارة العربية الإسلامية – الخانجى – القاهرة . ص ٨١.

(٢) محمد كرد على – الإسلام والحضارة العربية – لجنة التأليف والترجمة والنشر – الطبعة الثانية – ١٩٦٨ – جـ ١ . ص ١٥٥.

فيها، وتوسعة البيوت، واختطاط المدن والأمصار للتحضر، وتجئ عوائد الترف فى التأنق فى علاج القوت واستجادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة بأنواعها من الحرير والديباج، ومعالاة البيوت والصرح، وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون، أهل الأمصار والبلدان»[1].

فقد ورث العرب المدن فى الشام، ونزلوا بها، ورأوا القصور والدور، وكانت حضارة الشام متأثرة بما قبلها من الحضارة اليونانية والرومانية، وكان ذلك عاملاً من عوامل تحضر العرب. «وهذه الحضارة لا يمكن أن تكون بيزنطية فقط، ولكنها خليط من حضارات مختلفة للأمم التى دخلت فى نطاق الفتوحات العربية»[2].

وقد ترتب على الاختلاط بالأمم الأخرى السابقة فى التحضر، نتائج أسهمت فى سرعة التحضر العربى، فالأموال التى تصب فى حجور العرب من الفيء وغنائم الحرب، والجوارى والرقيق وما كانوا عليه من تحضر، كما نتج عن التطور المادى العظيم أسباب كثيرة أسهمت فى شيوع اللهو والمجون والترف، ومنها السبايا والجوارى والغناء، وتفنن العرب فى معيشتهم، واستجادة المطاعم والمشارب، والانغماس فى الملاهى إلى أقصى درجة.

وكان لانتقال العرب إلى هذه البيئة الجديدة الشامية ونقل عاصمة ملكهم من المدينة المنورة إلى دمشق، ما جعل الحكام الجدد يبتعدون عن مسرح الإسلام، وعن سياسة المسلمين الأوائل فى الزهد والتقشف، وارتقت دمشق ارتقاءً ماديًا، فقد أخذت «تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قطر، ثم توزع فى الناس من أهل الشام أولاً ثم من أهل البلدان الأخرى»[3].

ومن مظاهر الحضارة العربية فى عصر الأمويين بالشام، ما يتعلق بأمور مادية، وما يتعلق بأمور روحية ثقافية فكرية، «فقد استجادوا المطاعم والمشارب، والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرثى[4]، فأتوا من ذلك وراء الغاية، وسكنوا القصور واستخدموا أوانى الذهب والفضة، ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة، وتعطروا بالمسك وغيره، والموالى يسيرون من ورائهم يحملون كل ألوان الترف.

والإماء الجوارى من مظاهر الترف فى ذلك العصر، ومن العوامل التى ساعدت فى نقل الحضارة إلى بيوت العرب، وتعليمهم أرقى أنواع الطعام والملابس، وفى تاريخ الخلفاء للسيوطى قول لعبد الملك بن مَروان عن الجوارى جاء فيه: «فمن أراد أن يتخذ جارية للتلذذ فليتخذها

---

(١) مقدمة ابن خلدون – ص ١١٠.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة – اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى، دار المعارف – الطبعة الثالثة – ١٩٧٧ . ص ٥٦.

(٣) د. شوقى ضيف – العصر الإسلامى . ص ٩٤.

(٤) الخُرثى: أثاث البيت.

بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية»[1].

وعرف ما يعرف «بالتُّسرِّى» وهو اقتناء الجوارى للتمتع بهن، وكثيرا ما يعقب التسرى الزواج.

وتبدو آثار الحضارة فى اللغة وفى الأدب وفى الموسيقى، «فقد حظيت الموسيقى الصوتية وهى الغناء من العرب بمكانة واهتمام فاق اهتمامهم بموسيقى الآلة وحدها، وقد حدد هذا الميل إلى درجة ما تذوقهم العظيم للشعر»[2].

ويذكر المسعودى فى مروج الذهب، والأصفهانى فى الأغانى، وابن عبد ربه فى العقد الفريد أنواع الآلات الموسيقية العربية التى تفوق الحصر، والرسائل التى كتبت عنها، وقد اهتمت أمهات الكتب التى عالجت تراث الإسلام بالبحث فى الحضارة الإسلامية، وما خلفته من مآثر ومكتشفات فى العلوم العامة التى دفعت مدنية العالم إلى الأمام حتى عصرنا»[3].

ومن هذه الدراسات – أيضًا – التى اهتمت بدراسة وتسجيل مظاهر الحضارة العربية فى عصر بنى أمية، خلافة بنى أمية للدكتور نبيه عاقل، والإدارة العربية لمولوى حسين، وتاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان، وفى هذه الدراسات مادة علمية غزيرة ووفيرة عن مظاهر الحضارة فى العصر الأموى، ومنها – أيضًا – بعض الدراسات عن بلاد الشام فى العصر الأموى، والفرق الإسلامية فى بلاد الشام فى العصر الأموى، والجغرافية التاريخية لبلاد الشام فى العصر الأموى، والأمويون والخلافة، وسيرة الوليد بن يزيد، وكلها للدكتور حسين عطوان، وفيها معلومات مفيدة نافعة عن الحياة الفكرية والأدبية والسياسية والحضارية فى بلاد الشام فى العصر الأموى.

وقد اتسعت اللغة العربية، وواكبت الحضارة المكتسبة وسايرتها، ولم تقصر عن أداء وظائفها فى التعبير عن المصطلحات الجديدة، والفنون المستخدمة، فعبّرت عن المصطلحات العلمية الجديدة بكل يسر وبساطة، حتى شملت الحضارة جميع أوجه الحياة فى مظاهرها المادية والروحية.

وترتبط الحضارة بالدولة الأموية ارتباطًا وثيقًا، فقد تغير أسلوب الحكم ونظامه فى ظل بنى أمية، وانتقل الحكم من الخلافة أو الوصية والانتخاب الحر إلى الملكية وولاية العهد ويرى ابن خلدون «أنه عندما يحصل الملك يتبعه الرفه واتساع الأموال»[4].

---

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء . ص ١١٠.

(٢) توماس أرنولد – تراث الإسلام – ترجمة جرجيس فتح الله – مكتبة الطليعة – بيروت – ١٩٧٨ . ص ٥٢٢.

(٣) د. شوقى ضيف – العصر الإسلامى . ص ١٩٤.

(٤) مقدمة ابن خلدون . ص ١١.

ومن المعروف أن الدولة العربية اتسعت اتساعًا عظيمًا فى ظل الأمويين، وتؤكد دراسات التاريخ والفتوحات هذا الأمر، ومن المؤكد أن المظاهر الحضارية تأتى تباعًا لاتساع رقعة الدولة بل وتصاحبها «وذلك لتدفق المال إليها من كل جانب»[1].

وبدأ العرب ينسلخون عن البداوة شيئًا فشيئًا، ويبعدون عن الخشونة وينسون عهدها، وكأنها لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من اللهو والترف[2].

وآراء ابن خلدون فى حضارة العرب تحتاج إلى مراجعة وتدقيق، فلم ينسلخ العرب عن البداوة انسلاخًا تامًا، بل ظلوا هم وحكامهم يميلون إلى البداوة، ويبنون بعض قصورهم على أطراف البادية فى الصحراء، ولا يتخلون عن العادات التى ورثوها عن حياة البادية، مما كان له أعظم الأثر فى أدبهم، وخاصة فى أشعارهم، وظلوا يتغنون بالكرامة والسماحة والبذل والفداء والشجاعة، وحماية الجار وحسن الجوار والتمسك بالعصبية القبلية، والتسامح - أحيانًا - والصبر والحلم - أحيانا أخرى، كما دخل فى الأدب ولغة الأدب مفردات من البادية حتى ولو كان الشعراء لم يعرفوها ولم يسكنوها، كما وردت صور كثيرة قامت على البادية ومظاهر البادية وحياة البادية.

ولم يكن للعرب معرفة بالتحضر قبل خروجهم من البادية، ويعنى بذلك التحضر المادى، الذى يتعلق بمظاهر العمران، ووسائل المعيشة، ووسائل الترف واللهو، أما حضارة الإسلام فى الأخلاق وفى التعامل، فكان العرب المسلمون هم دعاة الخلق والقيم وقادة المثل والمبادئ الإنسانية.

وتتوارد الأخبار فى المصادر تؤكد جهل العرب بما رأوه من مظاهر التحضر فى البلدان المفتوحة.

«حكى أنه قُدِّمَ إليهم المرقَّق فكانوا يحسبونه رقاعا»[3].

كما جهلوا الكافور، وظنوه دقيقًا، فاستخدموه فى خبزهم، وكانت بعض الأصوات تنادى بالبعد عن الانغماس فى مظاهر البذخ والترف، فهذا عبد الله بن محمد يقف على المنبر، ويخطب فيهم، وقد رأى الناس تلبّسوا وتزينوا وأسرفوا فيقول: «واحسناه، واجمالاه، بعد العدم والسدم من الأدم والجوتكين والبرود، أصبحتم زهرا، وأصبح الناس غبرا، وأصبح الناس

---

(١) د. محمد مصطفى هدارة - اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى للهجرة . ص ٥٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون . ص ١١١.

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية - جـ ٨ . ص ٤٩.

وابن خلدون - المقدمة . ص ١٤٣.

يعطون وأنتم تأخذون، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون»[1].

وتتبارى المصادر العربية الموثوق بها فى تسجيل مظاهر التحضر فى عصر بنى مروان، فقد أحاط بنو مروان أنفسهم بكل ما يمكن من أبهة الملك فى قصورهم المزدانة بالطنافس، والتى تلمع على جدرانها الفسيفساء وصفائح الذهب والنافورات، ويروى عن عبد الملك بن مروان أنه لبس حلة تتلألأ كأنها الذهب، ويبدو أنها كانت مصنوعة من الديباج، الذى اشتهرت بصنعته الشام فى ذلك العصر، أما هشام بن عبد الملك فقد أسرف فى الزينة والهندام، حتى زعموا أنه لم يكن فى بنى مروان من هو أعطر منه، ولا ألبس منه، كما عرف سليمان بن عبد الملك بالتفنن فى المطاعم والملاهى، وتمتع الخلفاء الأمويون بكل مظاهر الأبهة، التى يتمتع بها الملوك والقياصرة، فظهر فى قصور ملكهم سرير الملك، والشرط، وشارات الحكم والمقصورة، ودواوين الكتابة والحجابة، فقد ولى عبد الملك بن مروان حاجبًا له، وأوصاه بقوله:

«قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعى الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد»[2].

وفى الحق، فقد عمل الأمويون على تأصيل الحضارة، وسرعة انتقالها إلى العربية، وصبغها صبغة عربية، ولكنهم ظلوا متمسكين بالإسلام ومبادئه، وبالعروبة وأصولها، فكان الحكم عربيًا، وكان النفوذ عربيًا، والحياة عربية، وكان الأدب عربيًا.

وقد أفاد الشاعر عدى بن الرِّقاع العاملى أكثر مما أفاد غيره من الشعراء من مظاهر الحضارة التى عمت جوانب الحياة من حوله فى عصر بنى أمية.

وكما كان للحضارة آثار فى الحياة وطرائق المعيشة، وانتقال العرب من طور إلى طور، فقد كانت سببًا من الأسباب التى أدت إلى التعجيل بنهاية دولتهم، وذهاب سطوتهم، وانحلال مجدهم نظرًا لانغماسهم فى حياة البذخ والترف واللهو، وإنفاق الأموال وكثرة العبيد والجوارى، إلى غير ذلك من عوامل سياسية وعقائدية وعصبية.

---

(١) محمد كرد على – الإسلام والحضارة العربية – لجنة التأليف والترجمة والنشر – ط. الثالثة – ١٩٦٨. ص١٥٥. (الجوتكين: عمامة للعرب).

(٢) ابن خلدون – المقدمة – ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) البيئـة
الأثر والتأثير

أثر من أهم الآثار التى تتشكل بالغزو الحضارى، كما تشكل هى الأخرى وتؤثر فى التيـارات الحضارية التى تفد عليها، من غزاة وفاتحين ومن دخلاء على البلاد وقاطنين بها، ومن المحتم أن يهتم الباحث بالتعرف على الأثر الحضارى الذى أسهمت البيئة فى تكوينه، ومـدى فاعليـة البيئة واستعدادها وتجاوبها مع المؤثرات الحضارية والتيارات الوافـدة التـى هبّـت عليـها بغيـة التطور والتقدم والتجديد.

وإذا كان البحث قد فرغ فى جزئه الأول من الحديث عن تحديـد مفـهوم الحضـارة وتـأصيل ملامحه فإنه يرى لزاما عليه أن يتعرف على طبيعة الأرض وملامح الكون والقالب الذى يحتوى البشر والقول والفعل وهو البيئة. فقد تستعد البيئة لتقبـل تيـارات التحضـر الجديـد، وتصبغـها بصبغتها، وتعطيها من ملامح تكوينها، ما يجعلها عربية غـير غربيـة، وأصيلـة غـير دخيلـة، وثابتة غير مهتزة أو مرتعشة، وقـد تكـون البيئـة رافضـة فـلا يبـدو معـها أى اهـتزاز حضـارى أو تأثير تجديدى لعجزها عن تقبل أو تشرب ما تسرّب إليها من تيارات حضارية وذلـك لعجـز فى الموقع غـير العبقـرى أو المنـاخ الرافـض لريـاح التجديـد أو التضـاريس التـى تمنـع التفـاعل والامتزاج مع التحضر والرقى.

ويقتضى التطـور العلمـى، والتقـدم فـى علـوم المنـاهج، وتنـاول الدراسـات الأدبيـة أن يـهتم الباحثون فى النصوص الأدبية التى أبدعها مفكرو العربية من شعراء وكتاب بقضية البيئة، وإذا كانت الدراسات النقدية التى تعد شطرًا عظيمًا من شطرى دراسة الأدب حين تتقاسم مع دراسة المضمون أو الموضوع أو الاتجاه الفكرى، بدأت تطـور نفسـها بالاتجاهـات الأسـلوبية الحديثـة، والدراسات الصوتية العلمية المعملية المتقدمة، والدراسات النقدية المقارنة، والاتجاهات البلاغيـة التطبيقية، والإفادة من المدارس النحوية والقضايا الصّرفية وغيرها ليضفى على التحليـل النقـدى قيمة وأهمية، فإن دراسة المضامين والأفكار يزيدها ثراء، تلك النظرات الفاحصـة الواسـعة علـى ما يغنى البحث ويثريـه مثـل الدراسـات الاجتماعيـة والتاريخيـة والنفسـية وكذلـك الجغرافيـة أو البيئية.

وقد يتعجب البعض من علاقة الجغرافيا بالأدب وهى علامة وثيقة، متجاوبة حية، لا يقلل من شأنها تقصير الباحثين فى أمرها، وإن كانت علاقة التاريخ بالأدب علاقة لا تهمل، وتأثير لا ينكر، فإن الأرض وعبقرية المكان، وإن التضاريس وسهولة السطح أو وعورته، وإن الجبال والرمال، أو الخضرة وعيون الماء، وإن المناخ واعتداله أو ثورته على المألوف، مما لا شك فيه فإن كل العوامل التى تؤثر فى جغرافية المكان وتحدد ملامح ومعالم البيئة لها تأثير واضح ظاهر فى طرائق تفكير الإنسان، وفى أساليب تعبيره، وفى مناهج إبداعه، وفى فكره وخصاله، وفى إعجابه بالطبيعة وإقباله على الحياة وحبه للمرأة وطرائق التعامل معها.

البيئة تحتاج إلى دراسات علمية تربط بين الأدب وبيئته:

تتشكل الحضارات بطبيعة البيئة التى تظهر فيها، وتتلّون معالم تلك الحضارة بطبائع البشر الذين يتمثلونها فى حياتهم سلوكًا وقولاً، وللبيئة آثار عظيمة فى جذب الحضارات الأجنبية والمؤثرات الخارجية، ولها أثر - أيضًا - فى تقبّل هذه الحضارات، وفى تأصيل ملامحها، وصبغ هويتها بالصبغة المحلية التى تلائم بين التيار الوافد والتيار الأصلى. وطبيعة البيئة الساحلية أو الصحراوية أو الزراعية أو الجبلية. والإقليم المعتدل المناخ أو الحار، والإقليم سهل الطرق والاتصال والانتقال، أو الوعر الذى يصعب فيه الالتقاء بين السكان إلا بشق الأنفس، كل هذه أمور تتحكم فى الحضارة التى تفد إلى الإقليم مع الفاتحين والغزاة الذين ينتقلون ومعهم حضارتهم.

وتؤثر - أيضًا - البيئة فى طبيعة السكان الذين يتأثرون بهذه المؤثرات الحضارية الوافدة، فيتشبعون بها ويتقبلونها، وتصبح جزءًا من حياتهم، تظهر فى طرائق معيشتهم، وفى سلوكهم الاجتماعى، وفى أقوالهم العادية، وفى إبداعاتهم التى يصبونها فى قوالب أدبية شعرًا أو نثرا.

والشام ذلك الإقليم الذى عاش فيه الشاعر عدى بن الرقاع العاملى، أو دمشق تلك المدينة التى ولد الشاعر بها، ومات فيها وكانت تنعم بمظاهر الحضارة حتى أن جمالها واعتدال مناخها وحسن طبيعتها جذبت الأمة إلى الانتقال بحكامها إليها، والانتقال من الجزيرة لى الشام، وجذبت حضارته - أيضًا - الشعراء الذين وفدوا إليه للتغنى بالحكام الأمويين حيث القصر الأموى، والاستمتاع بجمال الطبيعة الشامية، والإشادة بمحاسنها.

ويطالعنا المسعودى فى مروج الذهب، بوصف لصاحب الشام أرسله لعمر بن الخطاب:

«أما الشام فسحبٌ وآكام، وريح وغمام، وغدق وركان، ترطب الأجسام، وتبلّد الأحلام، وتصفى الألوان، والشام مسرح خصب، ووابل سَكب، كثرت أشجاره، واطردت أنهاره..»[1].

---

(١) المسعودى - مروج الذهب ومعادن الجوهر - ت: محمد محيى الدين عبد الحميد - دار المعرفة - بيروت - الجزء الثانى . ص ٦١.

ويضيف المسعودى فى مروجه مصورًا أثر البيئة فى أخلاق البشر:

«والأخلاق والصور - يا أمير المؤمنين - تناسب البلد وتحاذيه، وتقاربه، وتوافقه وتضاهيه، وكل بلد اعتدل هواؤه، وخف ماؤه، ولطف غذاؤه، كانت صور أهله وخلائقهم، تناسب البلد وتحاذيه، وتشكل ما عليه أركانه، وما أسس عليه بنيانه، وكل بلد يزول عن الاعتدال، انتسب أهله إلى سوء الحال»[1].

أما محمد كرد على صاحب خطط الشام فيقول عن بيئتها:

«قطر تأخذ فيه الفصول الأربعة حكمها، وتتم فى قيعانه وجباله أسباب النعيم، معتدل الأهوية، متهاطل الأمطار، والثلوج..»[2].

وفى الشام يقول أحمد أمين:

«الشام قطر غنى، خصب الأرض، كثير المياه، معتدل الجو، تعاقبت عليه المدنيات المختلفة، فأورثتها علمها وحضارتها»[3].

ومن الحضارات التى تعاقبت على الشام الحضارة الفينيقية فالكلدانية والمصرية والعبرية واليونانية والرومانية، وقد جاء الفاتحون الشام بحرا وبرا بل جاءوا من جهاتها الأربع، «فجاءها الفراعنة من البحر والبر، والبابليون والفرس من الشرق والشمال»[4].

ويرى د. شوقى ضيف فى اعتدال طبيعة الشام وجمال بيئتها: «سببا فى أن تقوم به، وتتعاقب عليه حضارات مختلفة، وأهلّه ذلك دائمًا للاتصال بالأمم القديمة، وتمثل ما عندها من مدنيات»[5].

أما «دمشق» مدينة عدىّ بن الرّقاع العاملى، فهى من مدن الشام الكبيرة وفيها «ما دثر وانحط، بعد أن كان له شأن فى الأزمان الغابرة، مثل قيسارية والمعرة وأنطاكية وقنسرين، والبتراء وبصرى وتدمر والسويداء، ومنها ما ثبت، وكان له من موقعه وملائمة الطبيعة له ما أبقى عليه، كأن يكون وسط ريف خصيب، وماء دافق، كدمشق وحمص وحماه وطرابلس[6].

ودمشق معناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغناء وهى بنفسها إرم ذات العماد التى أشار إليها لقرآن الكريم، كما يرى محمد كرد على مستندًا على ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان حين قال:

---

(١) المرجع السابق - جـ ٢ . ص ٦٣.

(٢) محمد كرد على - خطط الشام - مكتبة النورى - دمشق - الطبعة الثانية - ١٩٨٣ - جـ ١ . ص ١٤، ١٥.

(٣) المرجع السابق . ص ١٢.

(٤) المرجع السابق . ص ١٥.

(٥) د. شوقى ضيف - التطور والتجديد فى الشعر الأموى - دار المعارف - الطبعة السابعة - ١٩٨١ . ص ٤٣.

(٦) محمد كرد على - خطط الشام - جـ ١ . ص ١٣.

«وقيل أن الذى بنى دمشق جبرون بن سعد بن عاد بن آدم بن سالم بن نوح عليهم السلام، وسماها «إرم» ذات العماد[1].

ويذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان عدة أوجه فى تسمية دمشق[2] منها: «سُميت بدمشق لأنهم دمشقوا فى بنائها أى أسرعوا، وناقة دمشق أى سريعة، وناقة دمشقة اللحم خفيفة، وقيل سميت دمشق بدماشق بن سام بن نوح، وقيل أن عاذر غلام إبراهيم عليه السلام بنى دمشق، وكان حبشيًا، وهبه له نمرود وكان يسمى الغلام دمشق فسماها باسمه، وقال آخرون سميت بدمشق بن إرم.

ويضيف صاحب تاريخ الإسلام السياسى أنها:

«سميت بدمشق من الدمقس وهو ضرب من الحرير الذى اشتهرت به قبل الإسلام بزمن طويل»[3].

ويعتبرها ياقوت الحموى «جنة الأرض بلا خلاف، لحسن عمارته، ونضارة بقعته، وكثرة فاكهته، ونزاهة رقعته، وكثرة مياهه»[4].

وقالوا فى دمشق أنها المقصودة فى قوله عز وجل ﴿ وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾[5].

وقال قتاده فى قوله تعالى: ﴿ والتين والزيتون ﴾[6]. قال: التين الجبل الذى عليه دمشق، والزيتون: الجبل الذى عليه بيت المقدس وطور سينين، شعب حسن، وهذا البلد الأمين: مكة»[7].

وقيل: إرم ذات العماد: دمشق.

وقال الأصمعى:

جنان الدنيا ثلاث: منها غوطة دمشق، وقال الخورزمى[8]:

---

(١) محمد كرد على – دمشق مدينة السحر والشعر – دار الفكر – الطبعة الثانية – ١٩٨٤ . ص ٦.

(٢) ياقوت الحموى – معجم البلدان – جـ ٢ – مادة دمشق.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن – تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى – دار إحياء التراث العربى – النهضة المصرية – السابعة – ١٩٦٤ – ص ٥٢٠.

(٤) ياقوت: معجم البلدان – ٢/ ٤٦٣.

(٥) سورة المؤمنون – آية ٥٠.

(٦) سورة التين – الآية الأولى.

(٧) ياقوت – معجم البلدان مادة دمشق.

(٨) ياقوت: معجم البلدان مادة دمشق.

جنان الدنيا أربع: منها غوطة دمشق.

ويبالغ ياقوت الحموى فى وصف دمشق عندما يقول:

«وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشىء إلا فى دمشق مثله، ومن المحال أن يطلب بها شىء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها أوجه من جميع البلاد»[1].

ويسّجل لفيف من الشعراء - على مرّ عصور الأدب العربى المتعاقبة - إعجابهم بجمال دمشق وحسنها.

يقول أبو المطاع بن حمدان فى وصف دمشق:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلى بجنوب الغوطتين شجون[2]

ويقول الصنوبرى فى جمال دمشق:

صفت دنيا دمشق لقاطنيها فلست ترى بغير دمشق دنيا[3]

ويقول البحترى فى حُسْن دمشق:

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وَفَى لك مُطريها بما وعدا[4]

وقال ابن النقار:

سقى الله ما تحوى دمشق وحياها فما أطيب اللذات فيها وأهناها[5]

ومما لا شك فيه فإن هذا الجمال الطبيعى الذى وهبه الله - سبحانه وتعالى - لتلك المنطقة من العالم العربى، وكذلك التراث التاريخى الذى تمتعت به تلك البيئة كانا من أهم العوامل التى أدت إلى جذب الحضارات المختلفة والمتنوعة إلى البيئة الشامية بيئة الشاعر عدىّ بن الرّقاع العاملىّ، يضاف إليه ما عرف وما ظل من آثار الحضارات الباقية من الأمم التى تعاقبت على الشام ودمشق:

«إن الآثار الباقية من بلاد الشام تدل دلالة واضحة على مبلغ ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية فى سوريا طوال العصر الإسلامى»[6].

---

(١) السابق - جـ ٢ - مادة دمشق.

(٢) السابق - جـ ٢ - مادة دمشق.

(٣) السابق - جـ ٢ - مادة دمشق.

(٤) السابق - جـ ٢ - مادة دمشق.

(٥) ياقوت - معجم البلدان - جـ ٢ - دمشق.

(٦) المصدر السابق.

ويتلائم جو دمشق مع رغبة العرب ومزاجهم فى الأخذ بالحضارة والعمل على تصيلها. فاتخذوا من دمشق عاصمة لدولتهم الجديدة، وأسهمت دمشق فى الارتقاء بمشاريع الدولة الأموية الحضارية، وتوافقت مع أوضاعها المتطورة، وأخذ هذا الموضع الذى احتلته دمشق من الطبيعة والموقع فى جذب العلماء والأدباء من كل صوب. وأسهم ذلك فى سرعة تحضرها، وزيادة نشاطها الثقافى.

«وظلت دمشق مركزًا للخلافة فى عهد الدولة الأموية، يقصدها العلماء من كل صقع. يشجع الخلفاء الشعر والخطابة وفنون الأدب، وقامت المساجد بجانب الكنائس»[1].

وفى الشام نصارى كثيرون، احتفظوا بدينهم، يرضوا بدفع الجزية عن أنفسهم، ودفع الخراج عما يمتلكونه من أراض.

وتمتعت دمشق وحدها بالعظمة التى اكتسبتها من وجود مقر الحكومة فيها، واحتك لعرب الساميون بحضارة الآراميين. ووافق مزاجهم تلك المدينة الزاهرة القائمة على حافة الصحراء، بجداولها وخرير مياهها وأماكنها الظليلة، ولم يجد لأمويون الذين فطرت نفوسهم على حب السيادة، والميل إلى الاستمتاع والمرح أكثر ملائمة لمزاجهم من دمشق، إذ أمدتها بيزنطة بالكماليات، ومكة بالموسيقيين، والبصرة والكوفة بثمار الفكر»[2].

ويصف الشابشتى صاحب الديارات، ديارات دمشق، ويذكر منها دير البخت بدمشق وهو دير كبير كان يسمى بدير ميخائيل[3]. وقد سمى بدير البخت؛ وهى الإبل الخراس التى كانت لعبد الملك بن مروان، فعرف بها.

ويصف ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد أهل دمشق، يقول ابن عبد ربه:

«وقال أبو الدرداء يا أهل دمشق، ما لكم تبنون ما لا تسكنون، وقائلون ما لا تدرتنون، وتجمعون ما لا تأكلون، هذه عاد وثمود، قد ملئوا ما بين بصرى وعدن أموالاً وأولادًا، فمن يشترى منى ما تركوا بدرهمين»[4].

وينتقد أبو الدرداء الزاهد أهل دمشق، لانغماسهم فى الترف، وأخذهم بأساليب الحضارة، فقد تغيرت الحالة الاجتماعية لسكان دمشق فى ظل بنى أمية وإذا كان العرب أخذوا الحضارة، وتعرفوا عليها من أهل الشام ودمشق لاختلاطهم بالروم، وكثرة الإماء الأعجميات،

---

(١) أحمد أمين – فجر الإسلام – الطبعة الثانية عشرة – ١٩٧٨ – النهضة المصرية . ص ١٨٩.

(٢) د. على حسنى الخربوطلى – الحضارة العربية الإسلامية – الخانجى – القاهرة . ص ٢٤١.

(٣) الشابشتى – الديارات – ت: كوركيس عواد – دار الرائد العربى – بيروت – ط. الثالثة – ١٩٨٦ . ص ٢١٠

(٤) ابن عبد ربه – العقد الفريد – جـ ٣ . ص ١٤٢.

فإن أهل الشام فى دمشق عاشوا حياة مترفة فى ظل بنى أمية، فقد أفاء الله عليهم خيرات البلاد المفتوحة «فارتقت بذلك الحياة العربية، وارتفع مستوى الحضارة والتمدن فى البيت العربى، وتعددت مرافقه وضرورياته، وكان للإماء الأعجميات أعمق الأثر وأبلغه فى الانتقال بالبيت من خشونة البداوة وشظفها إلى لين الحضارة ونضارتها»[1].

لقد أسهمت الشام بموقعها فى تكوين العقلية الإسلامية لهذا العصر الأموى، وكان للتأثير الإغريقى فى الشام أعظم الأثر فى تأصيل الحضارة العربية التى قامت أولاً على التقليد والانتقال من البداوة والخشونة إلى الأخذ بالترف والرفه، ثم صبغ العرب الحضارة المجلوبة بطوابع عربية إسلامية، ولا ينكر ما للموقع الذى يحتله إقليم الشام، والمناخ الذى حبته الطبيعة لهذا الإقليم، من آثار بارزة فى تكوين الحضارة الإسلامية التى أسهم فيها موقع الشام ودمشق والمناخ وطبيعة الأمة والعناصر الحضارية الكائنة لديهم، فشمل التحضر مناطق دمشق جميعها، وأشار الشعراء إليها ومنها: الغوطة وهى من أعمال دمشق، ومرج راهط، وبصرى ونجران، وحوران، وهيت، وصيدا، وبحر الشام، ونهر البريص بدمشق - أيضًا - ونهر بردى[2] المعروف.

ويقسم ابن عبد ربه الشام أقسامًا منها:

الشام الثالثة: وتشمل الغوطة ومدينتها العظمى دمشق ومن سواحلها طرابلس[3].

فالبيئة لها دور كبير فى جذب الحضارات الأجنبية الوافدة، والبيئة لها تأثير عظيم فى تأصيل الحضارة وتنميتها، والبيئة المتخلفة أيضا لها دور فى طرد الحضارة وهدمها، وعلى هذا فقد كان لبيئة الشام أكبر دور فى حضارة الإقليم وتأصيله مما جعل الشاعر يستفيد من هذا التيار الذى كان له أعظم الأثر فى شعر عدىّ بن الرِّقاع العاملى.

---

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد - جـ ٦ . ص ٢١٦.

(٢) ياقوت: معجم البلدان - بردى.

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد - شرحه: إبراهيم الإبيارى - منشورات دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان - ١٩٨٢ - جـ ٢ . ص ٢٥٢.

(٣) الحُكّام
ودورهم فى تأصيل الحضارة العربية

على عاتقهم يقع العبء الأكبر، وحسب تفتحهم وتفهمهم لمعنى الحضارة ودورها فى بناء المجتمع، تدرك قيمتها وتعرف خطورتها، وكم من حاكم عربى حارب التحضر، وتصدى للتقدم، خشية إفساد البدو وثورة العرب عليه، وخروجهم على طاعته، ومعظم الحكام يأملون فى تقدم الأوطان، والتاريخ يختار حسب الفترة وخطورة دور الحاكم الذى يمكن أن يكون سببًا فى التقدم الحضارى والازدهار والنماء الفكرى والثقافى.

ربما يكون حاكمًا بوقًا لمستعمر، وحاكما غير محب لرعيته، وحاكما يغلق الأبواب فى وجه التحضر والتقدم، ولكن الأغلبية العظمى من الحكام العرب هم هؤلاء المحبون لأوطانهم، وليست هناك فترة أخطر من تلك الفترة التى مرت على الوطن العربى مع تأسيس الدولة الأموية وبداية دورها فى التاريخ العربى، فقد علا شأن الإسلام، وعلا شأن الدين والشرع، وبدأت الأمة العربية فى انتقالها الواثق من البداوة إلى التحضر، ومن الخشونة إلى التنعم، وقد عالج البحث مفهوم الحضارة التى ارتضى بها محورًا لهذا الكتاب، كما أوضح دور البيئة ومجال الطبيعة وعبقرية المكان، واعتدال المناخ فى جذب الحضارات وتنميتها، ومما لا شك فيه فإن الركن الثالث من أركان الحضارة هو طائفة الحكام، ودورهم فى تقدم البلدان ماديًا ومعنويًا، معماريًا وثقافيًا، تقدم فى الفنون وفى الأفكار وفى العلوم، وكذلك تقدم فى البناء والعمارة والقصور والحدائق والأخذ بأساليب التحضر فى تقدم الأوطان.

والمجال فى هذا البحث لا يتسع لسرد دور حكام بنى أمية فى تأصيل الحضارة العربية، وقد أفاضت مصادر التاريخ ومراجعه فى جلاء الوجه الحضارى للأمة العربية، وسجلت الكتب ما قدمه كل حاكم أو والٍ من أجل بناء الوطن العربى ماديًا ومعنويًا، ويجدر بنا فى هذا المجال أن نستعرض هذا الجانب وهو جانب الحكام ودورهم فى حضارة الشام ومدى تأثر الشاعر عدى ابن الرِّقاع العاملى بهذا الأثر الحضارى، استعراضًا سريعا.

ويمكن القول إن حكم الأمويين امتد من سنة ٤١ هـ حتى سنة ١٣٢ هـ (٦٦١ م - ٧٤٩ م).

وأول الملوك الأمويين معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ) (٦٦٠ - ٦٨٠ م) وآخرهم مروان ابن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ) (٧٤٤ - ٧٥٠ م).

وخلفاء بنى أمية أربعة عشر:

معاوية بن أبى سفيان	٤١ - ٦٠ هـ.
يزيد بن معاوية	٦٠ - ٦٣ هـ.
معاوية بن يزيد	شهران.
مروان بن الحكم	٤٦ - ٦٥ هـ.
عبد الملك بن مروان	٦٥ - ٨٦ هـ.
الوليد بن عبد الملك	٨٦ - ٩٦ هـ.
سليمان بن عبد الملك	٩٦ - ٩٩ هـ.
عمر بن عبد العزيز	٩٩ - ١٠١ هـ.
يزيد بن عبد الملك	١٢٥ - ١٢٦ هـ.
إبراهيم بن الوليد	١٢٦ - ١٢٦ هـ.
مروان بن محمد	١٢٧ - ١٣٢ هـ[١].

ويدور هذا البحث حول توضيح الأثر الحضارى الذى أرسى قواعده هؤلاء الحكام مما جعل الشعراء يتغنون بما يرونه، ويصفون ما يشاهدونه، فقد كان لطابع الحكم الأموى شكل يختلف عما ألفه العرب، وقد أخذ الخلفاء فى تشكيل دولتهم طابعًا متميزًا بأنظمة غير عربية.

وكان معاوية أول من اتخذ الحشم، وأقام الحُجَّاب على بابه، ووضع المقصورة والحرس كما بنى لنفسه قصرًا أسماه «الخضراء» اتخذ فيه السرير للجلوس، ووضع حوله الستائر، ووقف الحراس على رأسه أثناء الصلاة، خشية اغتياله، مثلما حدث لبعض الخلفاء الراشدين من قبله.

ولا يعنى ذلك أن حكام بنى أمية أخذوا الحضارة الأجنبية أخذًا كاملاً، ولكنهم عدلوا فى مظاهرها، حتى تتفق ومزاجهم العربى.

يقول أحمد أمين فى ضحى الإسلام[٢]:

«إن الحياة الأموية أقل تكلفًا، وأكثر سذاجة، وأدل على الذوق العربى البدوى البسيط، أن سيطرة العنصر العربى فى العهد الأموى صبغته بهذه الصبغة، وجعلته إذا أراد الترف والنعيم، تخير من ترف الأمم الأخرى ونعيمها، ولم يأخذه، كما هو بحذافيره، ثم هو يُعدِّل فيه حسب

(١) تاريخ اليعقوبى، والكامل لابن الأثير، وتاريخ السيوطى.

(٢) أحمد أمين – ضحى الإسلام – مكتبة النهضة المصرية – الطبعة التاسعة – ١٩٧٧ . ص ١٠١، ص ١٠٢.

ذوقه وميوله، ويجعله شيئًا آخر عربيًا لا فارسيًا صرفًا، ولا روميًا صرفا، والخلفاء الأمويون إذا وهبوا فإنما كانت أكثر جوائزهم الإبل، أخذا بمذاهب العرب وبداوتهم».

وقد عاصر الشاعر عدّى بن الرِّقاع أربعة خلفاء أمويين:

عبد الملك بن مروان.

والوليد بن عبد الملك.

وسليمان بن عبد الملك.

وعمر بن عبد العزيز.

والخلفاء لا يستغنون عن الشعراء، خاصة فى بداية تأسيس الدولة، ومحاولة الارتكاز والبقاء والاستمرار، والرغبة فى أصوات عالية واثقة تدعو لهم، وتقف بجانبهم، وتسجل تاريخهم، والشعراء يحتاجون للخلفاء، يبذل الخلفاء العطايا لهم، يمنحون الجوائز الكبرى، ينعمون ويغدقون عليهم، ولم ينل الحظوة عند خلفاء بنى أمية غير الشعراء المادحين لهم، فقد كان الخلفاء يحبون الشعر وخاصة المدح، وأولهم عبد الملك بن مروان.

وكان للشاعر عدىّ بن الرِّقاع العامليّ عند بنى أمية حظوة، وكان الشاعر ينصاع لهم، مخلصًا فى حبهم، مؤمنًا بمبادئهم، مروِّجًا لسياستهم، يعيش فى كنفهم، ولم يكن عدىّ من الشعراء الوافدين على دمشق، وقد جلبت عليه هذه الحظوة خصومة الحساد، فثارت حوله بعض الشكوك، وعُرِّض به، وبقى عدىّ وفيًا لرجال بنى أمية.

وتكثر أخبار عدىّ مع ثلاثة خلفاء من بنى أمية هم:

عبد الملك بن مروان.

والوليد بن عبد الملك.

وسليمان بن عبد الملك.

وتقل أخبار عدى مع الخليفة.

عمر بن عبد العزيز.

وأكثر ما تكون أخبار عدىّ مع: الوليد بن عبد الملك.

وقد شهد الوليد نضج عدىّ الفنى، وشهد عدىّ مع الوليد فترة حكم ليست بالقصيرة.

وقد جذبت أعمال الوليد أنظار الشعراء، فتهافتوا على مدحه إعجابًا به، وبأعماله وبدوره فى تأصيل الحضارة العربية فى عهده.

أما عبد الملك بن مروان، فقد تولى الخلافة سنة ٦٥ هجرية، وأسهم فى تحضر الدولة، فقد حافظ على نظام الوراثة فى الحكم، ومن أعظم أعماله تعريب الدواوين فى الممالك الإسلامية

كلها، وقد كانت حتى عصره تكتب بلغات أهلها بالقبطية أو اللاتينية أو الفارسية، فجعل اللسان العربى لسانًا عامًا فى سائر أنحاء الدولة[1].

وقد تم تعريب ديوان الشام والعراق فى عهد الخليفة عبد الملك، وديوان مصر وشمال أفريقيا فى عهد الوليد بن عبد الملك تحت إشراف أخيه والى مصر عبد الملك بن عبد الملك سنة ٧٨ هـ حين عزل انتناشى وعين ابن يربوع الفزارى[2].

ومن مظاهر التطور الحضارى فى عهد عبد الملك بن مروان ضرب العملة، ولم يكن للمسلمين حتى وقته سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم «إنما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم فى بلاد الفرس، وما يضرب من الدنانير فى بلاد الروم حتى سنة ٨٤ هـ، وهى سنة الجماعة، ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الإسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطًا، والدينار عشرين قيراطًا، وقد نقش عليها نقشًا إسلاميًا، وأمر الحجاج أن يضربها بالعراق، وكانت هناك دار ضرب للعملة، ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك فى بقية الأمصار الإسلامية»[3].

وفى تاريخ الطبرى[4] أن عبد الملك ضربها بالشاه سنة ست وسبعين وليس سنة أربع وثمانين للهجرة، وللاستزادة فى باب العملة العربية وتاريخها، تراجع بعض المصادر الأدبية والتاريخية مثل التاج للجاحظ[5]، ومقدمة ابن خلدون[6] والنقود للمقريزى[7]، والأخبار الطوال للدينورى[8]، والماوردى فى الأحكام السلطانية[9] والكامل لابن الأثير[10] وفتوح البلدان للبلاذرى[11]، والأغانى للأصفهانى[12]، ومن المراجع الحديثة تاريخ الحضارة للخربوطلى[13] وغيرها.

---

(١) د. أحمد رمضان أحمد – حضارة الدولة العربية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين والدولة الأموية – ١٩٧٨ . ص ١٢١.

(٢) د. أحمد رمضان أحمد – حضارة الدولة العربية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين والدولة الأموية – ١٩٧٨ – ص ١٢١.

(٣) محمد الخضرى – تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة الأموية – المكتبة التجارية الكبرى – ١٩٦٩ – ص ١٩٤.

(٤) تاريخ الطبرى – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – ٦/ ٢٥٦.

(٥) التاج – ٦/ ٢٤٦.

(٦) المقدمة – ٦/ ١٨٣.

(٧) الخطط – ٦/ ٣٦.

(٨) الأخبار الطوال – ٦/ ٣٢٢.

(٩) الماوردى – ص ٧٧، ص ١٤٨.

(١٠) الكامل – جـ ٤ . ص ١٧٣.

(١١) فتوح البلدان : ٤٧٣، ٤٧٤.

(١٢) الأغانى – جـ ١١ . ص ٤٧.

(١٣) الخربوطلى . ص ٢١٨.

وفى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان عرفت الكتابة على الطراز باللغة العربية، وقد سلّم مقاليد الحكم فى الدولة لولى عهده من بعده فى غاية الأمن والهدوء، مما ساعد الوليد بن عبد الملك أن يضيف خطوات حضارية واسعة فى عهده، وقد مات عبد الملك بدمشق سنة ٨٦ هـ، بعد أن قضى فى الخلافة إحدى وعشرين سنة، وتبالغ بعض المصادر عندما تروى أن خليفته الوليد شبّ بلا أدب (لأن أبويه كانا يُتْرِفَانِه، كما قال الشعبى[١] بينما تحكى روايات أخرى عن اهتمام عبد الملك بتربية أولاده، وتؤكد الأخبار تديُّن الوليد، وطيب خلقه، واهتمامه بالرعية، وجهاده فى سبيل الله، ونشر الدعوة الإسلامية، وكثرة الفتوحات، ولم يكن كما قال الشعبى أو غير الشعبى، ويقول صاحب العقد الفريد: «أن الوليد كان أسنّ ولد عبد الملك، وكان يحبه، فتراخى فى تأديبه لشدة حبّه إياه، فكان لحّانا، وقال عبد الملك، أخذنا فى الوليد حبنا له، فلم يوجهه إلى البادية»[٢].

وكانت أعمال الوليد العظيمة تلهم الشعراء، حتى اعتبرت مدة حكم الوليد «غرة فى جبين الدولة الأموية، ففيها قام بإصلاح عظيم، وتمت فتوحات عظيمة أضافت إلى المملكة الإسلامية بلادًا واسعة، واستردوا هيبتها فى أعين الأمم المجاورة[٣]، حتى قيل إن الدولة العربية الإسلامية، لم تتسع رقعتها فى أى فترة من فترات تاريخها، مثلما كان الحال عليه فى زمن الوليد.

وينحصر دور الوليد فى ازدهار الأمة العربية والدولة الإسلامية فى مجالات ثلاثة:

- الفتوحات.
- العمران.
- الاهتمام بالرعية.

ويؤكد الطبرى، واين عبد ربه أن الوليد كان عند أهل الشام: «أفضل خلفائهم»[٤].

وذلك لأنه أكثرهم فتوحات، وأعظمهم نفقة فى سبيل الله، بنى مسجد دمشق، وبنى مسجد المدينة، ووضع المنابر، واستعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز، وكان عهده عهد فتح ويسر ورفاهية، وانتشر الإسلام في خلافته، واتسعت حدود المملكة الإسلامية شرقًا حتى السند والصفد وبلاد الترك، وشمالاً إلى أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم، وغربًا فى أفريقيا والأندلس، حاول الوليد فتح الصين، واشتهر فى زمن الوليد أربعة قواد عظام هم:

---

(١) السيوطى – تاريخ الخلفاء . ص ٢٠٧.

(٢) ابن عبد ربه – العقد الفريد: ٤/ ٤٢٣.

(٣) محمد الخضرى – تاريخ الأمم الإسلامية . ص ١٦٧.

(٤) الطبرى – ٦/ ٤٩٧.

محمد بن القاسم بن محمد الثقفى.

وقتيبة بن مسلم الباهلى.

وموسى بن نُصير.

وسلمة به عبد الملك بن مروان.

ومما لا شك فيه فقد كانت الفتوحات سببًا فى التقدم الحضارى، وقد ترتب على الفتوحات آثار حضارية عديدة، وأسهمت فى التعرف على حضارات متقدمة ومتنوعة، وساعدت الفتوحات على كثرة الأموال، وكانت الأموال سببًا أسهم فى تحضر الشعب العربى ورفاهيته، وأسهمت - أيضًا - فى ازدهار المشاريع العمرانية والاجتماعية والثقافية.

وأسهمت الفتوحات - أيضًا - فى نشر الدعوة الإسلامية، وفى ذيوع اللغة العربية وانتشارها وازدهارها، وكذلك ازدهار الأدب العربى شعرًا ونثرًا، وأخرجت تلك الأمم المفتوحة علماءً عظامًا أفادوا الإسلام وأفادوا الأدب العربى بفكرهم المستنير المتطور.

ويُعدّ العمران من أبرز مظاهر التحضر، خاصة فى جانبه المادى، وفى الجانب المرئى الملموس، وقد يكون سابقًا للتحضر الفكرى والثقافى، وقد يكون الارتقاء العمرانى مقدمة ومدخلا مهما للتحضر العلمى والمعنوى.

وكان الوليد بن عبد الملك من أكثر الخلفاء اهتمامًا بالعمران، حتى صار طابع الدولة فى عهده.

ويروى «الطبرى» فى تاريخه[1]: «أن الوليد بن عبد الملك، كان صاحب بناء، واتخاذ للمصانع والضياع، وكان الناس يلتقون فى زمانه، فإنما يسأل بعضهم بعضًا عن البناء والمصانع، فولى سليمان بن عبد الملك، فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم عن التزويج والجوارى، ولما ولى عمر بن عبد العزيز، كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل، ما وراءك الليلة؟، وكم تحفظ من القرآن؟، ومتى تختمه؟؛ وما تصوم من الشهر؟».

وقد اتخذ الأمويون لأنفسهم «طرازًا خاصًا للعمارة، يتناسب مع طبيعتهم وذوقهم، حيث الرقى وجمال التنسيق والإتقان، يأخذون ما عند غيرهم، ويزيدون من روحهم عليه»[2].

وأكد القول المستشرق «هل» بعد مشاهدته قصور الأمويين التى بقيت بعض آثارها شاهدة على التقدم الحضارى، وكان الأمويون يسمونها «البوادى» ومنها قصر «عمير» ويروى أحد رواة العرب ممن نزلوا بهذا القصر: «لقد جئنا إلى قصر عظيم، كسيت أرضه بالمرمر الأخضر، وفى

---

(١) الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - ٦/ ٤٩٧.

(٢) الخربوطلى - الحضارة العربية . ص ٢٧٢.

وسط الفناء حوض كبير، ومياه جارية تروى الحديقة، التى تشمل جميع أنواع النباتات الجميلة والأشجار الظليلة، والطيور التى تغرّد بأعذب الأنغام»[1].

ويصف القصر ذاته، صاحب تاريخ الإسلام بأنه: «قصر صغير للصيد شرقى البحر الميت، ويشتمل على قاعة استقبال، مستطيلة الشكل، ذات عقدين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة لكل رواق منها سقف من قبو نصف دائرى»[2].

وتظل كتب التاريخ الإسلامى، ومصادر الحضارة العربية الموثوق بها، تعدد بعض القصور التى بقيت من حضارة الأمويين وتصفها وتحدد موقعها وترسم ما بقى من داخلها وما كان على جدرانها من نقوش وزخارف وكلها فى بادية الشام ومنها قصر «الأخيضر»، و «قسطل»، و «الأزرق» التى تدل جميعها على ارتقاء الذوق العربى فى عصر الوليد بن عبد الملك الذى شهد ازدهارًا غير مسبوق فى فن العمارة، وعرف النقوش على الجدران، وكان الشاعر عدىّ بن الرِّقاع العاملى أكثر الملازمين بل والمحبين للخليفة الأموى الوليد، وقد دفعه ذلك إلى أن يتشبع بروح التحضر وتبدو آثارها فى شعره بدون شك، فلم يصور الاتجاهات الحضارية من فراغ، ولم يتخيلها أو يتوهمها أو يحلم بها، أو يصور حضارات الغير أو السابقين، ولكنه صور إعجابا بمجهودات محبه الوليد بن عبد الملك.

ولم تقتصر الحضارة المادية أو التقدم العمرانى على الأبنية الدنيوية، بل امتدت لتشمل الأبنية الدينية، وهى المساجد، فقد تجلّت فى عمارة المساجد روعة الفن الهندسى، ولا تزال آثارها باقية شاهدة على عظمة التحضر العمرانى، وارتقائه فى عهد الأمويين.

وكان أولهم فى هذا المضمار عبد الملك بن مروان، وتبعه الوليد «وينسب إلى عبد الملك بن مروان بناء مسجد على الصخرة المقدسة، فى بيت المقدس، حيث عرج النبى ﷺ عندها إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج، ويعرف هذا المسجد باسم «قُبَة الصخرة»، وبنى الوليد فى ساحة مسجد قبة الصخرة مسجدًا آخر عرف باسم المسجد الأقصى»[3].

ومن أبرز أعمال الوليد العمرانية والدينية أمره بتوسيع المسجد النبوى بالمدينة المنورة، فقد شهد الحرم المدنى على يديه وفى عهده توسعات معمارية هائلة انتقل بها المسجد النبوى من البساطة إلى الأبهة والتحضر. كما أمر «الوليد» ببناء جامع دمشق، ففى سنة سبع وثمانين شرع

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٧٢.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن -- تاريخ الإسلام – الطبعة الرابعة – ١٩٥٧ – جـ ١ . ص ٥١٥.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوى – التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية – الأنجلو . ص ٢٤٥.

الوليد فى بناء جامع دمشق الذى يقول فيه ياقوت الحموى: «أنه بنى فى تسع سنين، وكان فيه عشرة آلاف رجل، فى كل يوم يقطعون الرخام، وفيه ستمائة سلسلة ذهب»[1].

ويهتم هذا البحث فى دراسته لأحوال التحضر فى الأمة العربية الإسلامية بالشام بالوليد أكثر من غيره لصاحبة الشاعر له، وإعجابه به، وحبه وتعلقه بشخصه، ولم تقتصر مظاهر التحضر فى خلافة الوليد على ما تقوم به الإمارة والأمير، بل امتدت لتشمل الرعية جميعها.

فقد حرص الناس فى عهد الوليد على تقليده فى العمران والتشييد، واقتناء الضياع، لوفرة المال فى أيديهم، نتيجة الفتوحات، وبنى الأمويون المدن ومنها، واسط واللد والرصافة، واهتم الوليد بالرعية، وأخذ بيدها إلى الترف والتحضر، وزاد المال فى أيدى الناس، وقد كتب أحد عمال الوليد أن بيوت المال قد ضاقت من مال الخمس، أى من الجزء المخصص من زكاة المال التى فرضها الله على المسلمين، فكتب إليهم أن يبنوا المساجد، وأجرى الوليد الأرزاق على الشعراء وخدّام المساجد، وأخذ الوظائف الكبرى من النصارى، وجوّد القراطيس، وجلّل الخطوط، وفخّم المكاتبات»[2].

وكان الحاكم الوليد بن عبد الملك من أهم مقومات التقدم الحضارى فى عصره فلم يهتم فقط بالحضارة المادية ومظاهرها فى العمران والبناء، بل اهتم - أيضًا - كما أكدت كتب التاريخ الإسلامى والحضارة العربية بمظاهر التحضر المعنوى والروحى، واهتم بالارتقاء الثقافى والتقدم الفكرى، ومما لا شك فيه كما اتضح من النصوص السابقة أن الرفاهية والتنعم والثراء كانوا شعار حياة الرعية والأمة فى عهده، والثراء والمال من أهم العوامل التى تجلب الحضارة وتساعدها على البقاء والنماء، بيد أن الفقر محطم للتحضر، ومبيد للتقدم.

وكان الوليد سَمِحًا يسعده أن يرى أهل الشام يعيش فى رفاهية، فاهتم بأحوالهم، وعطف على الفقراء والمعوزين، «وأعطى المجذومين حتى أغناهم عن سؤال الناس، فأعطى كل مُقعدٍ خادمًا، وكل ضرير قائدًا»[3].

والوليد أول من بنى دارًا للمرضى فى الإسلام[4] كما يذكر ذلك آدم متز، وقد اتهم البعض الوليد بأنه أقل الخلفاء تدينًا، وكيف ذلك، وللوليد هذه المواقف المشرفة التى يسجلها التاريخ

---

(١) ياقوت الحموى - معجم البلدان - (دمشق).

(٢) محمد كرد على - الإسلام والحضارة العربية - الطبعة الثالثة - ١٩٦٨ - لجنة التأليف والترجمة والنشر - الجزء الثانى - ١٧٠/ ١٧١.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد - جـ ٤ . ص ٤٢٤.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى - ترجمة: محمد عبد الهادى أبو ريدة - دار الكتاب العربى - بيروت - الطبعة الخامسة - الجزء الثانى . ص ٢٠٥.

من الفتوحات العظيمة التى استهدفت نشر الإسلام، ولغة الإسلام، وهو الذى ولّى عمر بن عبد العزيز أمور المدينة المنورة، وأمره بتوسيع المسجد النبوى، وهو الذى بنى مسجد دمشق، وهو الذى عزل النصارى من تولى الوظائف الكبرى، وأمر بهدم كنيسة يوحنا، وهو الذى كان يعطف على الفقراء والمساكين، ويهتم بالمعوزين والمرضى.

ويروى فى البيان والتبيين أن الوليد: «مرّ بمعلم صبيان فرأى جارية. فقال: ويلك ما لهذه الجارية؟ فقال: أعلمها القرآن، قال: فليكن الذى يعلمها أصغر منها»[1].

ودخل على الوليد فتى من بنى مخزوم، فقال له: زوجنى ابنتك، فقال له: هل قرأت القرآن؟ قال: لا. قال: ادنوه منى فأدنوه، فضرب عمامته بقضيب كان فى يده، وقرع رأسه به قرعات، ثم قال لرجل ضمّه إليك، فإذا قرأ القرآن زوجناه»[2].

وقال أحدهم للوليد: يا أمير المؤمنين، اقض دينى، فقال له: أتقرأ القرآن؟ فقال نعم، فاستقرأه عشرًا من الأنفال، وعشرًا من براءة، فقرأ، فقال: نعم، فقضى دينه»[3].

ويروى السيوطى فى تاريخ الخلفاء «وكان الوليد يحب الأيتام، ويرتب لهم المؤدبين، ويرتب للمرضى من يخدمهم، وللأضّراء من يقودهم، ورزق الفقراء والفقهاء والقضاة، وضبط الأمور أتم ضبط»[4].

ومن مظاهر الحضارة فى عهد الوليد، انتشار الجوارى، والجوارى من آثار فتوحات الوليد، ويقول صاحب الأخبار الطوال الدينورى، والطبرى، والأصفهانى، أن هذه الجوارى كانت ترد على الحكام، فيفرقونها فى وجوه الناس، ولم يكن العرب أول من اتخذ الجوارى، ولكن الرومان عرفوا ذلك قبلهم، وازدادت رغبة العرب فى «التّسرّى»[5] تمشيا مع الحضارة، وتدخلت الجوارى فى حياتهم العامة والخاصة، وتزوج عدد من الخلفاء من الجوارى، حتى أصبح أكبر أبناء الخلفاء من أولاد الجوارى.

وكان الوليد يستعين بزوجته «أم البنين» ويستشيرها فى بعض أمور الدولة.

«وقد عرفت أم البنين بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة، وبعد النظر، وكان لها مكانة ملحوظة فى قصره»[6].

---

(١) الجاحظ – البيان والتبيين – ت: عبد السلام هارون – الجزء الأول – بيروت . ص ٢٠٣.

(٢) الجاحظ – البيان والتبيين – ت: عبد السلام هارون – الجزء الأول – بيروت . ص ٢٠٣.

(٣) ابن عبد ربه – القعد الفريد – جـ ٤ . ص ٢٢٤.

(٤) السيوطى – تاريخ الخلفاء . ص ٢٠٨.

(٥) التسرى: اقتناء الجوارى للتمتع بهن.

(٦) ابن قتيبه – المعارف – ت: ثروت عكاشة – الطبعة الثالثة – دار المعارف . ص ٣٦٠.

ومما لا شك فيه فإن دور الجوارى لا يستهان به فى تأصيل بعض أسس التحضر فى المجتمع العربى الإسلامى، وهذا الأمر فى حاجة إلى إيضاح لا يليق مع صغر هذا البحث وتحديد اتجاهه، وفى كتابنا عن صورة المرأة فى الشعر إيضاحات قد تسهم فى تقريب صورة الجوارى فى التقدم الحضارى فقد كان منهن شاعرات وأديبات وحكيمات وزاهدات وعالمات ومتصوفات ومفكرات ولم يكن كلهن كما يتخيل البعض راقصات وشاربات.

ويظل التيار الحضارى فى تقدمه، ويظل التقدم المادى والفكرى فى توغله، وتظل الأمة العربية الإسلامية فى خلافة بنى أمية تربة خصبة تتلقى بذور الحضارة من أيدى خلفاء عرب مسلمين مؤمنين بدور تقدم الأمة العربية فى ظل خلافتهم.

وهذا الخليفة سليمان بن عبد الملك[1] وكان من خيار ملوك بنى أمية، وكان فصيحا مُفَوَّهًا، مؤثرًا للعدل محبًّا للغزو، ومولده سنة ستين، كما روى ذلك السيوطى[2].

ويذكر السيوطى قول ابن سيرين: «ويرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحيائه الصلاة لمواقيتها، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز».

والعسكرى فى الأوائل، وابن قتيبه فى المعارف ذكرا أن ولاية سليمان «افتتحت بخير، واختتمت بخير، فقد رد المظالم إلى أهلها، وأخرج المسجونين، واستخلف عمر بن عبد العزيز»[3].

وفتحت فى أيام سليمان جرجان، وحصن الحديد، وسردانية، وطبرستان، والصقالب»[4].

ويتحضّر العصر فى عهد سليمان بن عبد الملك، وتقتدى الرعية بحاكمها، وتنغمس فى اللهو والترف وهما من آثار التحضر، ويروى المسعودى[5]: «أن سليمان كان صاحب أكل كثير، يجوز المقدار، يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى، وفى أيامه عمل الوشى الجيد باليمن، والكوفة والإسكندرية، ولبس الناس جميعًا الوشى جبابًا وأردية وسراويل، وعمائم وقلانس، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا فى الوشى، وكذلك عماله وأصحابه، وأهل داره، وكان

---

(١) كنيته أبو أيوب – ولى الخلافة فى سنة ست وتسعين للهجرة.

(٢) السيوطى – تاريخ الخلفاء – دار الفكر العربى – بيروت . ص ٢١٠.

(٣) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر – ت: محمد محيى الدين. دار المعرفة – بيروت – الجزء الثالث. ص ١٨٣.

(٤) السابق – جـ ٣ . ص ١٨٤.

(٥) السابق . ٣/ ١٨٣.

لباسه فى ركوبه وجلوسه على المنبر، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه إلا فى الوشى حتى الطباخ، على صدره وشى، وعلى رأسه وشى، «وأمر سليمان أن يكفن فى الوشى[1]». وأطلق سليمان بن عبد الملك على نفسه لقب «الملك الشاب» وأكثر سليمان من مصانع النسيج، ودور الطرز فى عصره، وجلس فى صحن المسجد، وقد بسطت لديه البسط، والنمارق عليها، وصفت الكراسى، وأذن للناس بالجلوس، وإلى جانبه الأموال والكساوى وآنية الذهب والفضة[2].

وأخذ الحكام حظهم من الترف، ولم يغفلوا حظ الرعية، وعاشوا فى ثراء ورفاهية، حتى جاء عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز[3]، وكان قبل أن يتولى أمور الخلافة، يبالغ فى التنعم، ويختال فى مشيته»[4].

ولما ولى صار مثالاً للزهد والتقشف، وأعاد السير إلى سابقها فى عصر الخلفاء الراشدين، ونعم الناس حتى قيل إن الرجل كان يحمل زكاته على يديه، فلا يجد من يدفعها إليه.

ولا يُعنى بحثنا هذا بغير الحكام الذين عاصرهم شاعرنا «عدىّ بن الرُّقاع العامِلىّ» بل يهتم بأولئك الذين مدحهم وصورهم فى شعره فى اتجاهه الحضارى.

ومن الواضح أن الخلفاء أو الحكام من أهم العوامل التى أسهمت فى تحضر الأمة، كما أسهمت فيها الطبيعة والبيئة، وطبيعة الحكام واستعدادهم للتحضر وكذلك رغبة العرب فى التنعم والاستمتاع بالحياة، وكانت حضارة إيجابية، حضارة راقية، تلك التى عاصرها عدىّ بن الرِّقاع، وأفاد منها، وعبّر عنها فى شعره حيث موضوع بحثنا.

وكان العرب يغزون ويفتحون، يتقاتلون وينتصرون، ويجاهدون من أجل نشر دين الإسلام ولغة الإسلام، فحق لهم النصر، وحق لهم أن يستمتعوا بخيرات الفتوحات.

ولم يغب عن هؤلاء الحكام دور الأدب والأدباء، فاهتم حكام بنى أمية بالأدب والأدباء، واهتموا بالشعراء اهتماما ملحوظًا، مما أدى إلى ازدهار الشعر والكتابة فى عصرهم ازدهارا غير مسبوق، ونال الشعراء الحظوة لديهم، ووفد الشعراء إليهم، جاءوا من الجزيرة وغيرها، وأقاموا فى دمشق، وأقاموا فى غيرها من مدن الشام، والتفوا حول القصر الأموى، يمدحون حكامه، ويسجلون مآثرهم، فقد جذبهم العطاء، كما جذبتهم الحضارة والمدنية.

---

(١) السابق . ٣/ ١٨٦.

(٢) محمد كرد على – الإسلام والحضارة العربية – الطبعة الثالثة – ١٩٦٨ – جـ ٢ . ص ١٧١.

(٣) محمد كرد على – الإسلام والحضارة العربية – الطبعة الثالثة – ١٩٦٨ – جـ ٢ . ص ٢٧١.

(٤) السيوطى – تاريخ الخلفاء . ص ٢١٤ وعمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين تولى سنة ٩٩ هجرية توفى بدير سمعان بحمص سنة ١٠١ هـ – ظل فى الولاية سنتين وخمسة أشهر، وله من العمر ٣٩ سنة، وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب – وبعده ولى يزيد بن عبد الملك فهشام بن عبد الملك.

ونشطت النهضة الفكرية مع النهضة الأدبية والعمرانية والاجتماعية، وتطور النظام الإدارى والمالى والعسكرى والدفاعى، وتأثر العرب بالبيئة الجديدة، واتسمت الحضارة الجديدة بالطابع العربى الإسلامى، وتأثر الشعر والشعراء بأساليب التحضر الجديدة، وحافظوا معها على بعض المظاهر التراثية، خاصة فى الصياغة والتشكيل الفنى، وظهر التجديد فى بعض أغراض القصيدة، ومضامينها متأثرا بالتحضر وتقدم الحياة فى ظل بنى أمية.

وكان عدىّ بن الرِّقاع العامِلىّ، متأثرا بهذه الحضارة، وظهر أثرها فى بعض مضامين شعره ومع محافظته على شكل القصيدة المألوف فى صياغتها الفنية إلا أنه قد تأثر بالاتجاه الحضارى فى ألفاظها وصورها كما يوضح البحث فيما بعد.

(٤) الشاعر
وتأثره بالحضارة

الركن الرابع من أركان مربع المدخل إلى هذا البحث، وكانت أركانه الثلاثة مصطلح الحضارة، والبيئة، والحكام، هو الشاعر الإنسان المتأثر بما حوله من آثار الحضارة، والشاعر البصير الواعى المصور لمعالم الحضارة فى بيئته، والشاعر قد يتأثر بهذه المعالم الحضارية وقد لا يتأثر بها، وكأنه لا يرى شيئا أو على الأحق لا يعترف بشىء، وكأنه ارتضى بالبداوة مذهبا وشعورا، وقد يرفض الشاعر ما حوله، وقد يهاجمه ويذمه ويحاربه ويقاتله.

إذن يتوقف قدر الإحساس بالتحضر فى شعر الشاعر على قدر إحساسه بروح التحضر من حوله، وعلى قدر إيجابيته ومدى قبوله لهذا التغير أو هذا الرقى أو هذا التقدم، وتختلف درجة الإحساس بالتحضر بين شاعر وشاعر، فقد يعيش شاعران فى بيئة واحدة ويتغنى أحدهما بالحضارة من حوله ويبحث الآخر بل يفتش عن آثار البداوة، وقد يرى البعض فى البداوة أصلاً وعمقًا وتراثًا وحياة وفخرا ومجدًا وتاريخًا والتصاقًا بالأرض والوطن، وقد يرى البعض فى البداوة غير هذا ويتغنى بالتحضر والرفاهية ويصف العمارة والبناء والقصور، ويستبدل سلوكه البدوى بما فيه من خشونة وغلظة أحيانًا بسلوك آخر أكثر رقة وأكثر إنسانية.

ولا يعنى ذلك أن يكون شعر الشاعر كله حضرى، أو أن الأثر الحضارى هو الأثر الوحيد أو التيار الأوحد من التيارات البارزة فى شعر الشاعر، فمن المحتمل أن يكون بجانبه أثر بدوى يظهر فى موضوعات معينة، مثل المدح أو الفخر، أو وصف الجبال والمفازات، وقد يظهر فى البناء الفنى وفى المعجم الذى يستخدمه الشاعر فى مفردات قصائده.

ويهتم هذا البحث بإبراز الأثر الحضارى فى شعر عدىّ بن الرِّقاع العامِلىّ، ويقتضى هذا الأمر تحديد معالم شخصية الإنسان وهو أبرز أركان هذا المربع وهو المتأثر بما حوله، والمبدع لما يرى والواصف لما شهد وشعر وأحس.

وعدىّ بن الرِّقاع العامِلىّ شاعر شامى أموى. والشعراء الأمويون الشاميون، شعراء ولدوا وعاشوا وماتوا فى بلاد الشام وهم فئتان:

١ - شعراء من خلفاء وأمراء بنى أمية.

٢ - شعراء من القبائل اليمانية والقيسية.

أما الشعراء الشاميون من الخلفاء، فمنهم:

يزيد بن معاوية.

ويزيد بن عبد الملك

والوليد بن يزيد

وقد أشاد النقاد بأشعارهم، وأما الشعراء المقيمون فمنهم:

الشاعر عديّ بن الرِّقاع العاملى.

والشاعر المحدث ابن عبد الله البربرى[1].

وجذب قصر الحاكم الأموى فى دمشق هوى الشعراء من خارج الشام، فوفدوا إليه، ومنهم من أقام بها، وأصبح مثل الشعراء المقيمين فى كثير من جوانبه، ومنهم من كان ينزل الشام ويتركها ثم يعود إليها، أما الشعراء الذين وفدوا على بلاد الشام، وأقاموا بها، وتأثروا ببيئتها، وكان هواهم مع الحزب الأموى، فمنهم الأخطل، ومنهم من كان ينزل الشام ولا ينقطع إليها، ولا يقيم بها مثل جرير والفرزدق.

ويرى صاحب الجغرافية التاريخية لبلاد الشام فى العصر الأموى[2]، وصاحب الرواية الأدبية فى بلاد الشام فى العصر الأموى [3]، أن الأخطل التغلبى لم يكن من الشعراء الوافدين على الشام، بل الصحيح أنه شامى، لأنه جزرى، وكانت الجزيرة الفراتية من بلاد الشام حتى سنة أربع وسبعين.

ومن الشعراء الوافدين الشاعر الكوفى عبد الله بن الزبير بن الأشم الأسدى المتوفى فى ٧٥هـ، والشاعر أبو صخر الهذلى عبد الله بن سلمة السهمى المتوفى فى ٨٠هـ، والشاعر خلف بن خليفة الريعى، والشاعر البعيث وهو خداش بن بشر بن خالد أبو زيد التميمى ويكنى أبا مالك المتوفى فى ٣٤هـ، والشاعر الأعمى أبو العباس، السائب بن فروخ المكىّ ت ١٤٠هـ، ومنهم الشاعر أعشى ربيعة، عبد الله بن خارجة بن حبيب المتوفى ١٠٠هـ، ومنهم الشاعر عبد الله ابن همام بن رباح السلولى المتوفى ١٠٠هـ، ومنهم النابغة الشيبانى وعبد الله بن المخارق المتوفى ١٢٥هـ، وكان يمتدح الخلفاء الأمويين وخاصة عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد. «وأكثر مدائحه فى الوليد، وتوفى زمن الوليد بن يزيد، وله ديوان شعر مطبوع» [4].

---

(١) د. عمر موسى باشا – الأدب فى بلاد الشام من العصر الإسلامى وحتى نهاية العصر العباسى – الطبعة الأولى– ١٩٨٦ – دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . ص ١٢٣.

(٢) د. حسن عطوان – الجغرافية التاريخية وبلاد الشام فى العصر الأموى . ص ٢٣.

(٣) د. حسين عطوان – الرواية الأدبية فى بلاد الشام فى العصر الأموى . ص ١٠٤.

(٤) الأغانى – ١٠٦/٧ / الشعر والشعراء – ٦٣٣/٦٣٤، طبقات فحول الشعراء – ٥٢٢/ الزركلى فى الأعلام – ٤/ ٢٨٨: بروكلمان – ٢٢٥/١.

ومن هؤلاء الشعراء مسكين الدارميّ وهو ربيعة بن عامر، ومنهم الراعى النميرى وهو حصين ابن معاوية، ومنهم أبو النجم الراجز العجلى، وهو الفضل بن قدامة، ومن الشعراء الوافدين على الشام - أيضًا - الشاعر الأحوص[1].

وكان هوى معظم هؤلاء الشعراء مع بنى أمية، وكان بعضهم يفد على بنى أمية، رغبة فى العطاء، أو دفاعا عن الحزب الأموى، وإظهار التعصب له.

أما عن شاعرنا وهو «عديّ بن الرِّقاع العامِلىّ» فيعرف بشاعر الشام، وهو أبو دؤاد عديّ بن زيد بن مالك بن عديّ بن الرِّقاع العامِلىّ، ويضيف صاحب الأغانى إلى نسب عديّ بن عمر بن عدى بن شعل بن معاوية بن الحارث، وعاملة أم معاوية بن الحارث بنت وديعة بن قُضَاعة وبها سموا عاملة، ونسبه الناس إلى الرّقاع وهو جد جده لشهرته[2].

وكان عديّ شاعرًا مقدمًا عند بنى أميَّة، مداحًا لهم، خاصًا بالوليد بن عبد الملك، وله بنت شاعرة يقال لها سلمى.

ويقول صاحب الاشتقاق أن الرِّقاع جمع رقعة، وثوب مرقوع ورقيع، والرقيع زعموا السماء، وفى الحديث عن النبى «ﷺ» ولقد حكمت بحكم الله من فوق سبع أرقعة، والرقيعى ماء منسوب إلى رجل من بنى حكيم، اسمه رقيع، قال الراجز: يا ابن رقيع، هل لها من معبق[3].

وجعله محمد بن سلام فى الطبقة السابعة من شعراء الإسلام [4]، وكان منزله بدمشق، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم.

أما ابن دريد الأزدى صاحب الاشتقاق فيضعه مع أبناء الحارث بنى عديّ وأمهما عاملة «وبها يعرفون، ومنهم عدى بن الرِّقاع الشاعر، ويصفه كما وصفه غيره شاعر أهل الشام»[5].

ويضعه ابن سلاّم[6] مع المتوكل الليثى ويزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى وزياد الأعجم، والمسمّون بعديّ من الشعراء وغير الشعراء من المشهورين كثيرون، وقد ورد ذكرهم فى مصادر الأدب والتاريخ[7]، ومنهم:

---

(١) د. عمر موسى باشا - الأدب فى بلاد الشام من العصر الإسلامى حتى نهاية العصر العباسى - الطبعة الأولى - ١٩٨٦ . ص ١٢٣.

(٢) الأصفهانى - الأغانى - جـ ٩ . ص ٣٠٧.

(٣) ابن دريد الأزدى - الاشتقاق . ص ٣٥ - دار المسيرة - بيروت.

(٤) ابن سلام - طبقات فحول الشعراء - ت: محمود شاكر . ص ٦٩٩.

(٥) ابن دريد - الاشتقاق . ص ١٢٤.

(٦) ابن سلام - طبقات الشعراء. ص ١٩٢.

(٧) معجم الشعراء . ص ١٤٨.

عديّ بن أرطأه الفزارى
وعديّ بن حاتم الطائى
وعديّ بن زيد العبادى
وعديّ بن أميّة الضبىّ
وعديّ بن وَدَاع الأزدى
وعديّ بن الرِّعلاء الغسّانى
وعديّ بن غُطيف

وأخبار عديّ بن الرِّقاع فى كتب التَّراجم قليلة، ولا تفى بتوضيح الصورة،وقد اعتمدت التَّراجم على ما جاء به الأصفهانى، ولم يضف غيره شيئًا، وما قاله أبو الفرج - هو الآخر - قليل، يدور حول بعض مواقف الشاعر مع الحكام ومع غيره من الشعراء، وكان اهتمام أبى الفرج كعادته بالأصوات التى غنّاها المغنون من شعر ابن الرّقاع العاملى.

ولعل هذا الغبن الذى أصاب ابن الرقاع وأضعف أخباره، يرجع إلى سطوة الحكم العباسى، وكراهيتهم للنظام الأمويّ، ورغبة بنى العباس فى طمس آثار شاعر الشام، أو شاعر الأمويين، وشاعر الوليد، الذى تغنى بمآثر الشام وحكامها من الأمويين.

ويمكن التعرف على بعض قسمات شخصية الشاعر عديّ بن الرِّقاع العامِليّ النفسية من خلال شعره، فقد أوضح الشعر ما أغفله المترجمون، وتعر الشاعر صحيفة اعتراف يسجل فيها ما خفى، ويكون صادقًا - أحيانًا - وأحيانا أخرى يدعى ذلك، ومن خلال شعر عديّ يبدو أنه كان وفيًا مخلصًا لبنى أميَّة، منصفًا لهم بمدائحه، وكانوا يحبونه ويفضلونه، فهو شاعرهم الأول، الذى يسجل مآثرهم، وكانوا يدافعون عنه، ويؤثرونه على غيره، ويحمونه من أذى وهجاء الشعراء الحاقدين عليه لمكانته عند الأمويين.

والعاملى من قبيلة عاملة، وهى حى من قضاعة، وهى قبيلة كانت تقيم فى الشام بعد نزوحها عن اليمن وقبل الإسلام [1].

ويذكر الهمذانى فى صفة جزيرة العرب أن ديار عامة مجاورة للأردن، وجبل عاملة مشرف على عكا، من قبل البحر، يليها ويطل على الأردن.

---

(١) عمر موسى باشا - الأدب فى بلاد الشام . ص ٨٨.

ويقول القلقشندى إن بجبال عاملة من بلاد الشام الجمّ الغفير، من بنى عاملة [1]، وجبل عاملة يعرف اليوم بجبل عامل [2].

ويؤكد الشاعر عروبته، ويدافع عن قحطانيته، وينفى زعم غيره أن عاملة من معد بن عدنان، وليست من قحطان، ويرد عليهم مفتخرا بقحطانيته:

قحطان والدنـــا الذى ندعى له وأبو خزيمة خندف بن نـزار[3]

ويؤكد خليل مردم فى «الشعراء الشاميون» أن طئ بن قحطان الذى ينسب إليه عدىّ، لقول عدىّ:

فإنّكَ والشـــعرُ إذْ تُزْجـــى قوافيَةُ كمُبْتَغَى الصَيْدِ فى عِرِّيسَةِ الأسَدِ[4]

يريد الشعر الذى تزجى قوافية، وذو بمعنى الذى، فى لغة طئ، وطئ من قحطان[5]

ويثور عدىّ لعروبته، ويدافع عن نسبه، عندما يهجوه عبيد بن الحصين الراعى، فى قصيدته التى قال فيها:

لو كنُتُ من أحدٍ يُهجى هجوتكم يا ابن الرِّقاع ولكن لست من أحد[6]

فيرد عليه عدى بقصيدة جاء فيها:

حُدِّثْتُ أن رويعى الإبل يَشْتُمنى واللَّهُ يُصَرِّفُ أقوامًا عن الرَّشدِ[7]

أما عن مولد عدىّ، فلا يعرف على التحقيق سنة مولده، وإن كان ذلك يُرَجح ترجيحًا، وذلك شأن غيره من الشعراء الذين لا تعرف بدايات حياتهم، ويعود ذلك لعدم شهرتهم أو شهرة أبائهم، وغياب الخطورة الاجتماعية «فلم تتضح بعد هويتهم، ولم تعرف منزلتهم، ولا يقدر للشاعر حين مولده أن يكون لهذا الطفل شأن فى السنوات المقبلة، فيهمل أمره ولا يعتد به، بيد أن سنة الوفاة للشاعر معروفة ومحددة والاختلاف فيها يسير. ولكن أخبار عدى وقصائده وشهرته تظهر فى صحبة البلاط» [8].

---

(١) د. عمر موسى باشا – الأدب فى بلاد الشام . ص ٨٨.

(٢) القلقشندى – صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . ٣٣٦/١.

(٣) خليل مردم – الشعراء الشاميون . ص ١٥.

(٤) ديوان عدى . ص ١٧٦.

(٥) ديوان عدى . ص ١٧٩.

(٦) ديوان عدى . ص ١٧٥.

(٧) ديوان عدى . ص ١٧٦.

(٨) ديوان عدى . ص ١٠.

ويرجح مردم أن يكون مولد عدى - فى أغلب الظن - حـوالى العقـد الرابـع مـن القـرن الأول «لأن من أول ما روى عنه من الشعر أبيات قالها فى زمن يزيد بن معاوية وأنشده إياهـا، ويزيـد بويع بالخلافة سنة ستين، وتوفى سنة أربع وستين، فلا نكون مخطئين إذا قدرنا أن عدى كان وقتئذ شابًا [1].

وهذا الترجيح يميل إليه كثير من المؤرخين للأدب، وهو منهج متبع فى التحقق من بدايـات نظم الشاعر لشعره ومضاهاة ذلـك بالوقـائع والأحـد ث التاريخيـة التـى نجـد لهـا صـدى فيمـا ينظمه، وهو احتمال قد يصيبه الخطأ - أحيانًا.

أما عن موطن عدى، فيقول الأصفهانى: «وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم» [2].

ومنزل عدى دمشق، ولقبّه ابن دريد فى الاشتقاق بشاعر أهل الشام.

ويتسم عدىّ بالوفاء، ويروى الأصفهانى واقعـة تؤكد التزام عدىّ الأخلاقى، لمـا عـزل الوليـد بن عبد الملك عبيـده بن عبد الرحمن عن الأردن وضربه وحلقه، وأقامه للناس، وقال للمتوكلـين به: إن أتاه موجعًا وأثنى عليه فأتونى به، فأتى عدى بن الرقاع، وكـان عبيـده إليـه محسـنًا، فوقف عليه وأنشأ يقول:

فَمَا عَـزَلُوكَ مَسْبوقًا وَلَكِنْ إلى الخَيْراتِ سبَّاقا جَوَادَا

فوثب المتوكل به إليه، فأدخلوه إلى الوليد، فتغيَّظ عليه قائلاً: «أتمدح رجـلا قـد فعلـت بـه ما فعلت؟ فقال عدىّ إنه كـان إلىّ مُحسـنا، ولى مؤثـر، وبـى بـرا، فقـال: صدقـت فقـد عفـوت عنك[3].

والأصالة من سمات عدىّ الخلقيَّة، وأعماله تنم عليها، وصداقتـه للنـاس ورفقـه لـن يحسـن إليه «تظل فى عروقه موضع تكريم، وتبقى فى حسبه مجال اعتبار وتذكر» [4]

وعُرف عن عدىّ الذكاء وسرعة البديهة، وسرعة الخاطر، وكـم أخرجتـه هـذه الصفـات مـن أزمات ومآزق.

فقد عاتبه سليمان بن عبد الملك على قوله:

مَعَاذ ربِّى أنْ نبقَى وَنفْقدُه وأنْ نَكونُ لِراعٍ بَعْدهُ تَبَعًا

---

(١) مردم - الشعراء الشاميون . ص ١٦.

(٢) الأصفهانى - الأغانى . ٣٠٧/٩.

(٣) الأغانى . ٣٠٧/٩.

(٤) الأغانى . ٣١٣/٩.

قال عديّ:

لا والله يا أمير المؤمنين، ما هكذا قلت، وإنما قلت:

مَعَاذ ربِّى أنْ نبقَى وَنفْقدُه وأنْ نَكونَ لِراعٍ بَعْدَهمْ تَبعًا

فنظر إليه سليمان، واستضحك، ثم أمر له بصِلةٍ وخلى سبيله [1].

ويقول سليمان لعديّ أنشدنى قولك فى الخمر:

بُكيتُ إذا شَجَّت وفى الكأسِ وردةٌ لهَا فى عظامِ الشَّـــــاربين دَبْيبُ

فأنشده، فقال سليمان: «شربتها وربّ الكعبة، قال عدى: والله يا أمير المؤمنين، لئن رابك وصفى لها، قد رابتنى معرفتك بها، فتضاحكا، وأخذا فى الحديث» [2].

ويقول صاحب سيرة الوليد بن يزيد:

«وقد يكون الشعر لعديّ، وقد يكون لغيره، ويمكن أن يكون الخليفة الذى سأله هو الوليد بن عبد الملك، أو سليمان بن عبد الملك» [3].

ويروى الأصفهانى: «أن جريرًا دخل على الوليد بن عبد الملك وهو خليفة وعنده عديّ بن الرِّقاع العاملى، فقال الوليد لجرير: أتعرف هذا؟ قال: لا، فقال: هذا عديّ بن الرِّقاع العاملى، فقال جرير: عاملة ناصبة، تصلى نارا حامية، ثم قال: يقصر باع العاملى عن الندى، فقال له عديّ.. أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقول؟: فقال: لا، بل أدرى، فوثب العاملى إلى رجل الوليد فقبّلها، وقال أجرنى منه، فقال الوليد لجرير، لئن شتمته لأسرجنّك ولألجمنك حتى يركبك، فيعيّرك الشعراء بذلك.

فكنى جرير عنه بالمغرور وقال:

إنِّى إذَا الشَّـــاعرُ المَغْرورُ حرَّبنِى جَـــأْرَ لِقبرٍ عَلى مَـرَّانِ مَرْمُوسِ [4]

ويروى الأصفهانى أن محمد بن المنجم قال:

ما أحد ذكر لى فأحببت أن أراه وأصفعه إلا عديّ بن الرِّقاع، قيل: ولم ذلك؟ قال: لقوله:

وَعَلَمْتُ حتَّى مَا أسَائِلُ وَاحدًا عَنْ عِلْـم واحدةٍ لِكى ازْدَادُها

---

(١) ديوان عدى – ص ٩.

(٢) د. يوسف خليف – تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى – دار الثقافة – ١٩٧٦ – ص ١٦٢.

(٣) ديوان شعر عدى . ص ١١.

(٤) ديوان شعر عدى . ص ١.

فكنت أعرض عليه أصناف العلوم، فكلما مرّ به شيء ولا يحسنه أمرت بصفعه[1].

ويعلق مردم على هذا الخبر بقوله:

(سامح الله ابن المنجم، لقد أنكر على ابن الرقّاع دعواه، وادّعى أعظم منها)[2].

ويجمع عديّ بين ثلاث خصال، الحب والشجاعة والفصاحة، فيقول:

فَلَقَدْ تَبيْتُ يَـدُ الفَتَـاةِ وسَادةً ... لِـي جَاعِلا يُسْرَى يَدىَ وسَادَها

وأصَاحِبُ الجَيْشَ العَرْمَرَم فَارِسَا ... فِي الخَيْلِ أشْهَدُ كُرْهًا وطِرَادَهـا

وَقَصِيدةٍ قَدْ بتُّ أجْمَـعُ بَيْنَهـا ... حتَّى أقُوِّم مَيْلَهـا وَسِنَادَهَا[3]

ويفخر بقوته وصلابته فيقول:

وَنَكْبَةٌ لَو رَمى الرَّامِي بهَا حَجرًا ... أصمَّ مِن يَابسٍ الصَّوّانِ لاْ تُصْدَعا[4]

ويضيف بعض خصاله فى قوله:

حَمَلْتُ نَفْسِي عَلى أمرٍ وَقلْتُ لهَا ... إنَّ السُّؤالِ عَلى الحَـالِينَ مَملُولُ[5]

ويصور بأسه فى قوله:

أسُر هُمومًا لَو تَغلْغَـلَ بَعْضُها ... إلِى حَجَرٍ صلْدٍ تَركنْ به صَدْعَا[6]

ويصور حاله فى البؤس وفى النعيم، فيقول:

فَسَترْتُ عَيْبَ مَعِيْشَتِي بتكـرُّمٍ ... وَأتَيْتُ فِي سِعَةِ النَّعيمِ سَدِادَها[7]

وقد أصاب عديّ فى حياته لذة، كما صادف - أيضًا - شظفًا، فقال:

وَلَقَـدْ أصَبْتُ مِـنَ المعيشةِ لـذَّة ... وَلَقِيْتُ مِنْ شَظَفِ الخُطُوبِ شِدَادِها[8]

---

(١) محمد كرد على - الإسلام والحضارة العربية - الطبعة الثالثة - ١٩٦٨. ص ٥٠.

(٢) مردم - الشعراء الشامبون . ص ١٦.

(٣) الأصفهانى - الأغانى . ص ٣٠٧؛ وديوان عديّ. ص ٨٧، ص ٨٨.

(٤) ديوان عدى . ص ٢١٧.

(٥) الثعالبى - ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب - ص ٢٩٩.

(٦) تاريخ البكرى - ١٥١/٦.

(٧) ديوان عديّ . ص ٩٠.

(٨) ديوان عدى. ص ١٨٩.

ويفخر بالقرى وإكرام الضيوف، فيقول:

نَقْرِىَ الضُّيــوفَ إذا مَا الزَّادُ ضَنّ بهِ مُسْطارُ مَاشْيةٍ لَمْ يَعْدُ أن عُصِــرا[1]

ويتغنى بالعفة والحياء وجميل العزاء فى قوله:

وفـراقِ ذى حَسَبٍ ورَوْعــةِ فاجــعٍ داويتُها بتجمّــــلٍ وعَــــــزَاءِ

ليرى الرجـــالُ الكاشحون صلابتى وأعينُ ذاكَ بعِفّةٍ وحيَــــــاءِ[2]

والبيتان الأخيران أتى بهما البحترى فى حماسته «فى الصبر على المصائب والتجلد للشامتين وترك الاستكانة»[3] .

ويشير إلى ما وقع له فى صباه من أزمات وشدائد فيقول:

ولقد بلوتُ الدهر مذ أنا يافعٌ حتى لبستُ الشيبَ بعد فناء[4]

ولا تصور أشعار عدى الكثير من أخلاقه، وربما فى ضياع شعره وعدم اهتمام الشاعر بتسجيل كل أزماته مع الحياة، وانشغاله بمدح الحكام، واستعلائه على الأحداث، ما يبرر غياب حديث الشاعر عن نفسه إلا فى النادر.

وقيل أن ابنته كانت شاعرة، ولم نقف على أشعارها، غير الخبر الذى جاء فى الأغانى[5] ، وربما كان لها بعض الأبيات المتفرقة فى ثنايا شعر النساء.

ولم تذكر الأشعار صفات عدىّ الجسمية، غير إشارة ابن عساكر إلى أن «أبا حسن كان يصفه عبيد الراعى الشاعر بأنه قصير أوقص، ويهجوه بقوله:

جُنَادِفُ لا حقُ بالرأسِ منكَبه كأنه كَوْدنُ يوشىَ بكُــــلاَب [6]

ويعلق مردم بقوله: «والله يعلم مبلغ هذه الصورة من الصحة» [7] .

---

(١) ديوان عدى: ص ١٨٩.

(٢) ديوان عدى: ص ١٦١.

(٣) البحترى – الحماسة – ص ١٢٦.

(٤) ديوان عدى: ص ١٦٢.

(٥) الأغانى – جـ ١١ . ص ١٩٢.

(٦) ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر.

(٧) مردم: الشعراء الشاميون.

وربما كان عدىّ أعرج، وكان من الشعراء العرجان، ولم يكن عرجه طبيعة فى خلقته، ولكن ذلك أثر إصابة لحقت به، عندما كان يسير ليلا، فعثر، فانكسرت رجله، فذم الصبر، وقال شعرًا منه:

لبئستِ العَينُ عَيْنٌ بتُّ أتبعُها إذا أدلهمَّ سوادُ الليل فاعتكرا
لقد تباشر أعدائى بما لقِيت رجْلى وكم من كريم سيِّد عثرا[1]

ولم يشر غير عدىّ إلى هذه العاهة، ولم يذكرها عدى فى غير هذا الموضع، ولم يجعله الجاحظ بين شعرائه العرجان، ولم يكن للعاهة أثر فى نفسه.

ويذكر صاحب الديوان [2] أنه من العرجان، حيث نزل عن مطيته ليلاً، ومشى بعد أن أعيا من الركوب، فوقعت رجله فى جحر من جحرة اليرابيع، فانكسرت، وبقى أعرج مدة حياته، وعده الجاحظ من البرصان، ومن الأدران [3].

وتتوالى الأخبار فى ثنايا مصادر الأدب والتاريخ، تؤكد شاعرية عدى بن الرِّقاع، وتأتى على نمط التقاء القدامى، فى تفضيله لبيت قاله دون تحديد اتجاه أدبى أو نقدى، ومنها قول الأصفهانى أن أبا عبيدة كان يستحسن بيت عدى:

وَسْنَانُ أقْصَدَهُ النعاسُ فرُنقَتْ فى عَيْنِهِ سِنَةٌ وليس بنائم[4]

ويقول: (ما قال أحد فى مثل هذا المعنى أحسن منه فى هذا الشعر)[5].

وقال أبو عمرو وهو يسمع بعض أبياته: أحسن والله عدى بن الرقاع[6].

وقال عنه أبو الفرج:

ينفرد عدىّ بن الرِّقاع بوصف المطية، ويُقدم فيه[7].

وعندما يسأل جرير من أنسب الشعراء؟ قال: ابن الرِّقاع، وذكر قوله: لولا الحياء.. ..، ثم قال: ما كان يبالى أن لم يقل بعدها شيئًا.

---

(١) ديوان عدى: ص ١٩٠.

(٢) الديوان : ص ٨.

(٣) الأغانى: جـ ٩/٣٠٠ وما بعدها، ومعجم الشعراء / ٨٦ – ٨٧، والديوان: ص ٨ (الأدران: جمع أدر وهو العظيم الخصية من داء أو فتق).

(٤) أبو الفرج – الأغانى – جـ ٩ . ص ٣٠٥ والديوان: ص ١٢٢.

(٥) أبو الفرج – الأغانى – جـ ٩ . ص ٣٠٦.

(٦) أبو الفرج – الأغانى – جـ ٩ . ص ٣٠٤.

(٧)أبو الفرج – الأغانى – جـ ٩ . ص ٣٠٧.

وقال ابن قتيبة: «وكان شاعرًا محسنًا وهو أحسن من وصف ظبية[1].

ويضم عدى بن الرِّقاع العاملى إلى قائمة الشعراء المعروفين بتنقيح قصائدهم، واختيار ألفاظهم، وفى ديوانه ما يؤكد أن إحدى قصائده فى مدح عمر بن عبد العزيز خير شاهد.

وكان الأصمعى يقول لأصحابه: ألا أنشدكم حولية عدى: حى الهداملة من ذات المواعيس.

ويعبر عدى عن اهتمامه بتهذيب قوافيه، وتثقيف شعره وتقويم عيوبها، وإصلاح سنادها وميلها، فيقول:

وقصيدة قد بت أجمع بينها ... حتى أقَوِّم ميلَها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته ... حتى يقيم ثقافه مَنْآدَها[2]

ويرى صاحب الديوان [3] أن هذا التثقيف لم يكن غريبا على شاعر الدولة الذى عاصر خلفاءها، وتأثر بطراز حضارتها وتأنق الحياة التى أصبحت سمة من سمات العصر، وقد استطاعت الدولة أن ترسخ قواعدها وتضع ركائز الوجه التعظيمى والحضارى لكثير من أوجه تعاملها، وأساليب منهجها وعلاقاتها مع الدول.

ويرى - أيضًا - أن هذا التثقيف كان سببًا من أسباب الاستشهاد الكثير ببعض أبياته التى أصبحت مضربًا للمثل، ومدعاة للاستشهاد فى مواضع مختلفة.

ومن أكثر الأبيات التى أعجب بها المفسرون والنقاد، واستشهد بها أصحاب كتب الأدب والآمالى ومجاميع الشعر.

والأبيات هى:

لولا الحياء وأنَّ رأسى قد عَثَا ... فيه المشيب لزرت أم القاسم
فكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرَّنقت ... فى عينه سِنَة وليس بنائم[4]

ويعقب كل من يشهد على الأبيات بقول خاص، يعبر عن وجهة نظره ويظهر إعجابه، ومما يروى عن الأصمعى ما قاله الأصفهانى[5] أنه قال: «وأحسن بيت قيل فى الجفون قول ابن

---

(١) الشعر والشعراء - ابن قتيبة : ص ٦١٨.
(٢) ديوان عدى . ص ٨٨؛ ص ٩٠.
(٣) ديوان عدى: ص ١٣.
(٤) ديوان عدى: ص ١٢٢.
(٥) الأشباه والنظائر - الخالديان : ١/١٦٥.

الرقاع، وكان أبو عبيدة يستحسن البيت الثالث ويقول: ما أحد قال فى مثل هذا المعنى أحسن منه فى هذا الشعر[1] . وعقب عليها الخالديان فقالا:

ولعمرى إن بيتى ابن الرقاع هذين فى نهاية الحسن[2] .

وقال الثعالبى فى الإيجاز والإعجاز ولا يعرف مثل قوله فى وصف المرأة[3] .

ومن أروع ما قاله عدىّ ويستشهد به النقاد قوله:

فلو قيل مبكاهـا بكيت صبابـة إليهـا شفيت النفس قبـل التندّم

ولكـن بكت قبلى فهيّج لى البكا بكاها فقلت: الفضل للمتقـدم[4]

وكذلك أبياته التى وصف فيها حمارًا وأتانه:

يتعاوران من الغبـــار ملاءة بيضاء مُحْدَثَةَ همـا نسجاهـا

تطوى إذا عَلَوا مكـانًا جاسيًـا وإذا السنابك أسهلت نَشراها[5]

ويعقب على الأبيات البغدادى صاحب الخزانة [6] بقوله:

وهذا أحسن ما قيل فى وصف الغبار والعجاج.

ويستشهد ياقوت فى معجمه بأكثر من مائة وعشرة أبيات لكثرة المواضع التى ورد ذكرها فى شعر عدى.

وأخبار عدى مع النقاد ومع أصحاب النظر فى شعره كثيرة ولا يعنـى البحث غير اتجاهه الحضارى فى بعض شعره مضمونا وصياغة وهذا ما يفرغ له البحث فى الأجزاء القادمة.

---

(١) الأغانى: ٣١١/٩.

(٢) الخالديان: الأشباه والنظائر : ١٦٥/١.

(٣) الثعالبى – الإيجاز والإعجاز : ٤٤.

(٤) ديوان عدى .

(٥) ديوان عدى : ص ١٠٥.

(٦) البغدادى – خزانة الأدب – ٢٧٧/٣.